تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الرابع والعشرون

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

الجزء الرابع والعشرون

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) .

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

مثوى : مُقاما ؛ من ثوى بالمكان يثوى ثويًا وثواء : إذا أقام به ، والذى جاء بالصدق : هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصدّق به هم أتباعه ، أسوأ الذى عملوا : أى ما عملوه من المعاصى قبل الإسلام ، ويجزيهم أجرهم : أى يثيبهم على الطاعات التى فعلوها فى الدنيا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف بعض هنات المشركين ، وبعض مقابحهم وأعقبه بمثل يشرح حالهم — أردف ذلك بنوع آخر منها ، وهو أنهم يكذبون فيثبتون لله ولداً ويثبتون له شركاء ، ويكذّبون القائل الحق ، فيكذبون محمداً بعد قيام الأدلة القاطعة على صدقه ، وبعد أن ذكر وعيد هؤلاء أعقبه بوعد الذى جاء بالصدق ، ووعد المصدّقين له ، فذكر أن الله يؤتيهم من فضله الثواب ويمنع عنهم العقاب .

الإيضاح

(فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق) أى لا أحد يبلغ ظلمه ظلم من افترى على الله الكذب فجعل معه آلهة أخرى ، أو ادعى أن الملائكة بنات الله وهو أيضا كذّب بالحق الذى جاء به رسوله من دعاء الناس إلى التوحيد ، وأمرهم بالقيام بفرائض الشرع ونهيهم عن محرماته وإخبارهم بالبعث والنشور .

وفى قوله (إذ جاءه) بيان لأنهم كذبوا به من غير وقفة ولا إعمال روّية بتمييز بين حق وباطل كما يفعل أهل النَّصَفة فيما يسمعون .

وبعد أن ذكر حالهم أردفه بوعيدهم فقال :

(أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين) أى أليس فى النار مأوى ومسكن لمن كفروا بالله وأبوا تصديق رسوله وامتنعوا عن اتباعه فيما يدعو إليه من التوحيد والشرائع التى أنزلها عليه .

وخلاصة هذا — ألا يكفيهم ذلك جزاء على أعمالهم .

وبعد أن ذكر حال المكذبين ووعيدهم أردفه بذكر الصادقين المصدقين ، ومدحهم على ما فعلوا فقال :

(والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) أى والذى جاء بالصدق

وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، وصدّق به وهم أتباعه الذين نهجوا نهجه وساروا على طريقه — هم الذين اتقوا الله فوحدوه و برئوا من الأوثان والأصنام وأدوا فرائضه واجتنبوا نواهيه ، رجاء ثوابه وخوف عقابه .

ثم ذكر ما وعدهم به من ثواب عظيم ونعيم مقيم فقال :

(لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين) أى لهم من الكرامة عند ربهم ما تشتهيه أنفسهم وتقرّ به أعينهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وذلك جزاء من أحسن عملا ، فأخلص لربه فى السر والنجوى ، وراقبه فى أقواله وأفعاله ، وعلم أنه محاسب على النقير والقطمير ، والجليل والحقير .

ثم بين سبحانه ما هو الغاية لهم عند ربهم فقال :

(ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا) وذلك أعظم ما يرجونه من دفع الضر عنهم ؛ والنفس إذا علمت زوال المكروه عنها كان فى ذلك سرور ولذة لها تعدل السرور واللذة بجلب المنافع لها .

(ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) أى ويثيبهم بمحاسن أعمالهم ولا يجزيهم بمساويها ، وقدّم تكفير السيئات على إعطاء الثواب ، لأن دفع المضار أهم من جلب المسارّ .

وفى ذكر تكفير الأسوإ إشارة إلى استعظامهم للمعصية مطلقا لشدة خوفهم من الله ، وإلى أن الحسن الذى يعملونه هو الأحسن عند الله لحسن إخلاصهم فيه .

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انْتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ؟ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ

كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ، قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٤٠) .

شرح المفردات

بكاف عبده : أى يكفيه وعيد المشركين وكيدهم، الذين من دونه: هم الأصنام، ذى انتقام : أى ممن عاداه وعادى رسوله .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنه يؤتى المؤمنين ما يشاءون فى الجنة ويكفر عنهم سيئاتهم — أردف ذلك ببيان أنه يكفيهم فى الدنيا ما أهمهم ، ولا يضيرهم مايخوفونهم به من غضب الأوثان والأصنام ، فإن الأمور كلها بيده تعالى ؛ فمن يضلله فلا هادى له ، ومن يهده فلا مضل له ، وهو ذو العزة المنتقم الجبار . ثم ذكر أن قول المشركين يخالف فعلهم ، فحين تسألهم من خلق السموات والأرض يقولون الله ؟ وهم مع ذلك يعبدون غيره ، ثم سألهم سؤال تعجيز : هل ما تعبدونه من وثن أو صنم يستطيع أن يكشف ضرا أراده الله بأحد ، أو يمنع خيرا قدره الله لأحد ؟ إذا فالله حسبى وعليه أتوكل .

وبعد أن أعيته الحيلة فى أمرهم — أمره أن يقول لهم : اعملوا كما تشاءون ، وعلى نحو ما تحبون ، إنى عامل على طريقتى ؛ ويوم الحساب ترون المحق من المبطل ، ومن سيحل به العذاب المقيم الذى سيخزيه يوم يقوم الناس لرب العالمين .

الإيضاح

(أليس الله بكاف عبده ؟) أى الله وحده هو الذى يدفع عن عباده الآفات ، ويزيل عنهم المصايب والويلات ، ويعطيهم جميع المشتهيات ، والمراد أنه يكفى من عَبَدَه وتوكل عليه .

وأتى بالكلام على طريق الأسلوب الإنكارى للإشارة إلى كفايته تعالى على أبلغ وجه ، كأنها من الظهور بحيث لايتيسر لأحد أن ينكرها .

ثم رتب على ذلك ما هو كالنتيجة لما سلف فقال :

(ويخوفونك بالذين من دونه) أى ويخوفك المشركون بغير الله من الأوثان والأصنام عبثا وباطلا ، لأن كل نفع أو ضر فلا يصل إلا بإرادته تعالى . وقد روى أنهم خوّفوا النبى صلى الله عليه وسلم مضرة الأوثان فقالوا : أتسبّ آلهتنا ؟ لئن لم تكف عن ذكرها لتخبلنّك أو تصيبنّك بسوء . وقال قتادة : مشى خالد بن الوليد إلى العُزّى ليكسرها بالفأس ، فقال له سادنها : أحذركها ياخالد ، فإن لها شدة لايقوم لها شىء ؛ فعمد خالد إلى العُزّى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس .

وفى الآية إيماء إلى أنه يكفى نبيه صلى الله عليه وسلم دينه ودنياه ، ويكفى أتباعه أيضا ، ويكفيهم شر الكافرين .

ونحو الآية قوله : « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ » وقوله تعالى حكاية عن إبراهيم : « وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ؟ » .

ثم أبان شديد جهلهم لتوعدهم بما لايضر ولا ينفع فقال :

(ومن يضلل الله فما له من هاد) أى ومن يضلله الله لتدسيته نفسه وجبه للإثم والفسوق ومعصية الرسول ، فما له من هاد يهديه إلى الرشاد ويخلصه من الضلال .

(ومن يهد الله فما له من مضلّ) أى ومن يوفقه الله إلى أسباب السعادة بتزكية

نفسه وتحبيبها إلى صالح العمل ، فلا مضل له يصرفه عن مقصده أو يصيبه بسوء يغير سلوكه ، إذ لاراد لفعله ولا معارض لإرادته ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(أليس الله بعزيز ذى انتقام) أى الله عزيز لا يغالب ، ومنيع لاينازع ولا يمانع، وذو انتقام من أعدائه لأوليائه ، فهو الذى لايضام من استند إلى جنابه ، أو لجأ إلى بابه .

ثم أقام الدليل على غفلتهم وشديد جهلهم فى عبادتهم للأصنام والأوثان مع تفرده تعالى بالخالقية لـكل شىء وعدم خلقها شيئا فقال :

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) أى إن هؤلاء المشركين يقرون بوجود الإله العالم الحـكيم لوجود الدليل ، ووضوح السبيل الذى لايمكن إنـكاره ، فإذا هم سئلوا اعترفوا به ، وإذا كان كذلك فـكيف ساغ لهم عبادة غير الخالق أو تشريك مخلوق مع خالقه فى العبادة ؟ وقد كانوا يذكرون بحسن العقول وكمال الفطنة ، ولـكنهم لما قلدوا أسلافهم ، وأحسنوا الظن بهم ، هجروا ما يقتضيه العقل ، وعملوا بما هو محض الجهل .

ثم أمر سبحانه رسوله أن يبكتهم ويوبخهم بعد هذا الاعتراف فقال :

(قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟) أى أخبرونى عن آلهتكم هذه ، هل تقدر على كشف ما أراده الله بى من الضر أو منع ما أراده لى من الخير ؟ وإذا لم تكن لها قدرة على شىء فلا ينبغى التعويل عليها ولا عبادتها ، بل نعبد الإله القادر الذى تكون عبادته كافية فى جلب السراء ودفع الضراء .

قال مقاتل: لما نزلت هذه الآية سألهم النبى صلى الله عليه وسلم فسكتوا . وقال غيره : قالوا لاتدفع شيئا من قدر الله ولـكنها تشفع فنزل قوله :

(قل حسبى الله) فى جميع أمورى من جلب نفع أو دفع ضر ، فلا أخاف شيئا من أصنامكم التى تخوفوننى بها .

(عليه يتوكل المتوكلون) أى عليه لاعلى غيره يعتمد العاملون .

وفى الحديث « من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله عز وجل أوثق منه بما فى يديه ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله عز وجل » .

وروى عن ابن عباس أنه قال: «احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، و إذا سألت فاسأل الله ، و إذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الناس لو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، رُفعت الأقلام ، وجفّت الصحف ، واعمل لله بالشكر فى اليقين . واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » .

ونحو الآية قول هود عليه السلام : « إِنِّى أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ . إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » حين قال له قومه : « إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ » .

ولما أورد عليهم الحجة التى لادافع لها ــ أمر رسوله أن يقول لهم على وجه التهديد:

(قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون. من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) أى اعملوا على ما أنتم تعتقدون فى أنفسكم من القوة والشدة واجتهدوا فى أنواع مكركم وكيدكم فإنى عامل أيضا فى تقرير دينى والسعى فى نشره بين الناس ، فسوف تعلمون أن العذاب والخزى فى الدنيا يصيبنى أو يصيبكم ، فيظهر حينئذ أيّنا المبطل أنا أو أنتم ، ويحل علىّ العذاب المقيم الدائم فى الآخرة أو عليكم .

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ، فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ؟ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) .

المعنى الجملى

بعد أن حاجهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على وحدانيته تعالى — سلاه عن إصرارهم على الكفر الذى كان يعظم عليه وقعه كما قال : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » وقال : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » وأزال عن قلبه الخوف فأعلمه أنه أنزل عليه الكتاب بالحق وأنه ليس عليه إلا إبلاغه ، فمن اهتدى فنفع ذلك عائد إليه ، ومن ضل فضير ضلاله عليه ، وما وُكل عليهم ليجبرهم على الهدى .

ثم ذكر أنه تعالى يقبض الأرواح حين انقضاء آجالها ويقطع صلتها بها ظاهرا وباطنا ، وظاهرا فقط حين النوم ؛ فيمسك الأولى ولا يردها إلى البدن ، ويرسل الثانية إلى البدن حين اليقظة ، وفى ذلك دلائل على القدرة لمن يتفكر ويتدبر .

ثم أبان أن هذه الأصنام التى اتخذت شفعاء لا تملك لنفسها شيئا ولا تعقل شيئا، فكيف تشفع ؟ و بعدئذ ذكر مقابحهم ومعايبهم وأنه إذا قيل لا إله إلا الله وحده ظهرت آثار النفرة فى وجوههم ، و إذا ذكرت الأصنام ظهرت علامات الفرح والسرور فيها ، وهذا منتهى الجهل والحق الشديد .

الإيضاح

(إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق) أى إنا أنزلنا إليك القرآن بالحق لتبلغه للإنس والجن مبشرا برحمة الله ، ومنذرا بعقابه ، وفيه مناط مصالحهم فى معاشهم ومعادهم والهادى لهم إلى الصراط المستقيم .

(فمن اهتدى فلنفسه) أى فمن عمل بما فى الكتاب الذى أنزل عليك واتبعه فإنما بغى الخير لنفسه ، إذ أكسبها رضا خالقها وفاز بالجنة ونجا من النار .

(ومن ضل فإنما يضل عليها) أى ومن حاد عن البيان الذى بيناه لك ، فضل عن الحجة ، فإنما يجور على نفسه ، و إليها يسوق العطب والهلاك ، لأنه يكسبها سخط الله وأليم عقابه فى دركات الجحيم « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

(وما أنت عليهم بوكيل) أى وما أنت أيها الرسول برقيب على من أرسلت إليهم ترقب أعمالهم وتحفظ عليهم أفعالهم ، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب .

ونحو الآية قوله : « إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » وقوله : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ » .

ثم ذكر سبحانه نوعا من أنواع قدرته البالغة ، وصفته العجيبة فقال :

(الله يتوفى الأنفس حين موتها) أى الله هو الذى يقبض الأنفس حين انقضاء أجلها بالموت ، ويقطع تعلقها بالجسد تعلق المتصرف فيه .

(والتى لم تمت فى منامها) أى ويتوفى الأنفس التى لم يحضر أجلها ، فيقبضها عن التصرف فى الجسد مع بقاء الروح متصلة به .

(فيمسك التى قضى عليها الموت) أى فيمسك التى قضى عليها الموت فلا يردها إلى الجسد .

(ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) أى ويرسل النائمة إلى الجسد حين اليقظة إلى أجل مسمى هو وقت الموت .

روى عن ابن عباس أنه قال : إن فى ابن آدم نفسا وروحا بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس التى بها العقل والتمييز ، والروح هى التى بها النفس والتحريك ، فيتوفيان عند الموت ، وتتوفى النفس وحدها حين النوم .

وأخرج البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره (طرفه الذى يلى الجسد ويلى الجانب الأيمن) فإنه لايدرى ما خلفه عليه ، ثم ليقل باسمك ربى وضعت جنبى ، وباسمك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

وأخرج أحمد والبخارى وأبو داود وابن أبى شيبة عن أبى قتادة « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم ليلة الوادى : إن الله تعالى قبض أرواحكم حين شاء ، وردها عليكم حين شاء » .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : « كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فقال : من يكلؤنا الليلة ؟ فقلت أنا ، فنام ونام الناس ونمت فلم نستيقظ إلا بحر الشمس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيها الناس إن هذه الأرواح عارية فى أجساد العباد ، فيقبضها الله إذا شاء ويرسلها إذا شاء » .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن سليم بن عامر أن عمر بن الخطاب قال :

العجب من رؤيا الرجل أنه يبيت فيرى الشيء ولم يخطر على باله فتكون رؤياه كأخذ باليد ، ويرى الرجل الرؤيا فلا تكون رؤياه شيئا ! فقال علىّ كرم الله وجهه ، أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين ؟ يقول الله تعالى : « اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » فالله يتوفى الأنفس كلها ، فما رأت وهى عنده سبحانه فى السماء فهى الرؤيا الصادقة ، وما رأت إذا أرسلت إلى أجسادها فهى الكاذبة ، لأنها إذا أرسلت إلى أجسادها تلقتها الشياطين فى الهواء فكذبتها ، وأخبرتها بالأباطيل فكذبت فيها ، فعجب عمر من قوله رضى الله عنهما اهـ .

ومن هذا تعلم أن النفس علوية هبطت من المحل الأرفع ، وشغلت بتدبير منزلها فى ليلها ونهارها ، ولا تزال تنتظر العود إلى ذيّاك الحى ، فحين النوم تنتهز الفرصة ، فيحصل لها نوع توجه إلى عالم النور وتستعد لقبول بعض آثاره ، والاستضاءة بشىء من أنواره ؛ فمتى رأت وهى فى تلك الحال فاضت عليها أنواره فكانت الرؤيا صادقة، ومتى رأت وهى راجعة القهقرى إلى ما ابتليت به من تدبير منزل تحوم فيه شياطين الأوهام ، وتزدحم فيه أىّ ازدحام، كانت رؤياها كاذبة ، وهى فى كلتا الحالين متفاوتة على حسب الاستعداد ؛ والله ولى التوفيق ، ومنه الهداية لأقوم طريق .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أى إن فيما ذكر لآيات عظيمة دالة على كمال قدرته تعالى وحكمته لمن يتفكر فى طريق تعلق الأنفس بالأبدان وتوفيها عنها بانقطاع تصرفها حين الموت مع بقائها فى عالم آخر إلى أن يعيد الله الخلق ، وفى قطع تصرفها فى الظاهر فقط فى حال النوم ، ثم يرسلها حال اليقظة إلى انقضاء آجالها .

ثم أنكر على المشركين اتخاذ الأصنام شفعاء ، فقال :

(أم اتخذوا من دون الله شفعاء) أى بل اتخذ المشركون آلهتهم التى يعبدونها لتشفع لهم عند الله فى قضاء حاجاتهم ؟

وإجمال المعنى — إنه لاينبغى لهم ذلك ، إذ لايخطر على بال عاقل فائدة لهذا ، ومن ثم أمر رسوله أن يتهكم بهم ويحمقهم على ما يفعلون فقال :

(قل أولو كانوا لايملكون شيئا ولا يعقلون) أى قل لهم أيها الرسول : أتتخذون شفعاء كما تزعمون ، ولو كانوا لايملكون لكم نفعا ، ولا يعقلون أنكم تعبدونهم .

ثم أمر رسوله أن يخبرهم أن الشفاعة لله وحده فقال :

(قل لله الشفاعة جميعا) فليس لأحد منها شىء إلا بإذنه لمن ارتضى كما قال : « مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإذْنِهِ ؟» وقال : « وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى » .

والخلاصة — إنه تعالى مالك الشفاعة كلها ، لايستطيع أحد شفاعة لديه إلا أن يكون المشفوع مرتضى والشفيع مأذونا له ، وكلاهما ليس بموفور هنا .

ثم بين العلة فى أن الشفاعة جميعا له فقال :

(له ملك السموات والأرض) أى له السلطان فى السموات والأرض ، وكل من فيهما ملك له ومنها ما تعبدون من دونه ، فاعبدوا مالك الملك كله الذى لايتصرف أحد فى شىء منه إلا بإذنه ورضاه .

(ثم إليه ترجعون) أى ثم إليه مصيركم بعد البعث وهو معاقبكم على إشراككم به سواه إن أنتم متم على هذه الحال .

وخلاصة ذلك — اعبدوا من يقدر على نفعكم فى الدنيا وعلى ضركم فيها ، وفى الآخرة بعد مماتكم يجازيكم بما قدمتم من عمل : خيرا كان أو شرا .

ولا يخفى ما فى هذا من التهديد والوعيد الذى تقشعر منه الجلود خشية .

ثم ذكر هفوة من هفواتهم التى تصدر منهم ، وتدل على غفلة عظيمة وتناقض بين الاعتراف بالألوهية وإنكارها فقال :

(وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر

الذين من دونه إذا هم يستبشرون) الاشمئزاز أن يمتلىء القلب غيظا وغما ينقبض عنهما أديم الوجه كما يرى فى وجه العابس المحزون ، والاستبشار أن يمتلىء القلب سرورا فتنبسط له بشرة الوجه .

أى إنه إذا قيل لا إله فى الكون إلا الله وحده نفرت قلوب أولئك المشركين الذين لايؤمنون بالبعث والمعاد بعد الموت ، وإذا ذكرت الآلهة التى يدعونها من دون الله فقيل : تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى؛ استبشروا وفرحوا لفرط افتتانهم بهم ونسيانهم حق الله تعالى .

قال ابن عباس فى الآية : اشمأزت قست ونفرت قلوب هؤلاء الأربعة الذين لايؤمنون بالآخرة أبوجهل بن هشام والوليد بن عتبة وصفوان وأبىّ بن خلف .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا » .

قال السيد الألوسى فى تفسيره ناعيا حال المسلمين اليوم : وقد رأينا كثيرا من الناس على نحو هذه الصفة التى وصف الله تعالى بها المشركين، يهشون لذكر أموات يستغيثون بهم ويطلبون منهم ، ويطربون من سماع حكايات كاذبة عنهم توافق أهواءهم ومعتقداتهم فيهم ، ويعظمون من يحكى لهم ذلك ، وينقبضون من ذكر الله تعالى وحده ونسبة الاستقلال بالتصرف إليه عز وجل ، وسرد مايدل على مزيد عظمته وجلاله ، وينفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة وينسبونه إلى ما يكره ، وقد قلت يوما لرجل يستغيث فى شدة ببعض الأموات ، وينادى يا فلان أغثنى ، فقلت له: قل يا ألله فقد قال سبحانه : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » فغضب وبلغنى أنه قال : فلان منكر على الأولياء ، وسمعت من بعضهم أنه قال : الولى أسرع إجابة من الله عز وجل ، وهذا من الكفر بمكان ، نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزيغ والطغيان اهـ .

قل اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَالَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عن المشركين حبهم للشرك ونفرتهم من التوحيد — أمر رسوله بالالتجاء إليه لما قاساه فى أمر دعوتهم من شديد مكابرتهم وعنادهم ، تسلية له ، وبيانا لأن سعيه مشكور ، وجدّه معلوم لديه ، وتعليما لعباده أن يلجئوا إليه حين الشدة ، ويدعوه بأسمائه الحسنى ، ثم ذكر أحوالهم يوم القيامة حين يرون الشدائد والأهوال وما ينتظرهم من العذاب .

الإيضاح

(قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) أى قل : يا ألله يامبدع السموات والأرض ، ويا عالم ماغاب عنا وما تشهده العيون والأبصار ، أنت تحكم بين عبادك فتفصل بينهم بالحق ، يوم تجمعهم لفصل القضاء فيما كانوا فيه يختلفون فى الدنيا من القول فيك وفى عظمتك وسلطانك ، فتقضى بيننا وبين المشركين الذين إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوبهم ، وإذا ذكر مَنْ دونه استبشروا وفرحوا .

أخرج مسلم وأبو داود والبيهقى فى الأسماء والصفات عن عائشة قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل افتتح صلاته . اللهم ربَّ جبريل

وميكائيل وإسرافيل ، فاطرَ السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم .

وروى أحمد عن عبدالله بن عمرو رضىالله عنهما قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّمنا أن نقول : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت رب كل شىء وإله كل شىء ، أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لاشريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك والملائكة يشهدون ، أعوذ بك من الشيطان وشركه ، وأعوذ بك أن أقترف على نفسى إثما أو أجرّه إلى مسلم » . قال أبو عبد الرحمن رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن يقول ذلك حين يريد أن ينام .

وقال أبو بكر الصديق : « أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقول إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضطجعى من الليل : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت رب كل شىء ومليكه ، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه ، أو أقترف على نفسى سوءاً أو أجره إلى مسلم» رواه الترمذى .

وبعد أن ذكر معتقداتهم الفاسدة ذكر فى وعيدهم أمورا :

(١) (ولو أن للذين ظلموا مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة) أى ولو أن هؤلاء المشركين ملكوا كل ما فى الأرض من الأموال وملكوا مثله معه ، وقُبِلَ ذلك منهم يوم القيامة لافتدوا به أنفسهم من أهوال ذلك العذاب الشديد الذى سيعذبون به ، وقد تقدم إيضاح هذا فى سورة آل عمران .

(٢) (وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون) أى وظهر لهم من عذاب الله

الذى أعدّه لهم ما لم يكن فى حسبانهم ولم يحدثوا أنفسهم به .

وفى هذا وعيد عظيم لهم وتهديد بالغ غاية لاغاية وراءها .

قال مجاهد : عملوا أعمالا توهموا أنها حسنات فإذا هى سيئات ، وقال عكرمة ابن عمار : جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعا شديداً فقيل له : ماهذا الجزع ؟ قال أخاف آية من كتاب الله (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) فأنا أخشى أن يبدو لى مالم أكن أحتسب .

(٣) (وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى وظهر لهم حين تعرض عليهم صحائف أعمالهم ما كانوا اجترحوه من السيئات وارتكبوه من الآثام وعلموا أنهم مجازون على النقير والقطمير ، وأحاط بهم العذاب من كل جانب ، وأيقنوا أنهم مواقعوه لامحالة ؛ لاستهزائهم بما كان ينذرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم .

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) .

المعنى الجملى

بعد أن حكى عن المشركين بعض هنواتهم الفاسدة — حكى عنهم هناة أخرى هى أنهم حين الوقوع فى الضر من فقر أو مرض يفزعون إلى الله ويلجئون إليه علما

منهم أنه لا دافع له إلا هو ، وإذا نالتهم بعض النعم من فضله زعموا أن ذلك بكسبهم ، وحسن صنيعهم ، وجميل تدبيرهم ، والحقيقة أن ما أوتوه إنما هو فتنة لهم واختبار لحالهم ، ليعلم أيشكرون على ماحباهم به من النعم أم يكفرون ، ولكن أكثرهم لايعلمون ذلك .

وما هذه المقالة ببدع منهم بل قالها كثير قبلهم فلم ينفعهم ذلك شيئا ، ثم ذكر أن بسط الرزق وتقتيره بيد الله يبسطه تارة ويقبضه أخرى ، وليس ذلك لسعة الحيلة وحسن التدبير وحدهما ، فإنا نرى كثيرا من العقلاء وأرباب التدبير المال وحسن تصريفه فى ضيق شديد ، وكثيراً من الجهلاء والحمقى فى بحبوحة من العيش ورغد عظيم منه .

الإيضاح

(فإذا مس الإنسان ضر دعانا ، ثم إذا خوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ، بل هى فتنة ولكن أكثرهم لايعلمون) أى إن أمر المشرك عجيب يدعو إلى الدهشة والحيرة ، فإذا هو أصيب بضر من فقر أو مرض جأر إلى الله واستعان به لكشف ذلك الضر عنه ــ وإذا تغيرت الحال ونال شيئا من الرخاء أو زال عنه ما به من العلة قال : إنما أوتيت هذا لعلمى بوجوه المكاسب وجدى واجتهادى ، أو لذهابى إلى الأطباء واهتمامى بالعلاج فلم أدخر دواء ناجحا إلا بذلت نفيس المال للحصول عليه .

وهذا منه تناقض عجيب ، ففى الحال الأولى يستغيث بربه ، وفى الحال الثانية ينسب السلامة إلى نفسه ويقطع صلتها عن المنعم بها الذى أوجدها وأرادها ، وفى الحق إن ما أعطيه من النعم إنما هو فتنة واختبار لحاله ، أيشكر أم يكفر ، أيطيع أم يعصى ؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون أن ذلك استدراج من الله وامتحان لهم ؛ ومن ثم يقولون مايقولون ، ويدّعون من الدعاوى ما لايفقهون .

ثم بين أن هذه مقالة ليست وليدة أفكارهم بل سبقهم بها كثير ممن قبلهم فقال :

(قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى قد زعم مثل هذا الزعم وادعى مثل هذه الدعوى كثير ممن سبقهم من الأمم ، فلم يغن عنهم شيئا حين جاءهم أمر ربهم على تكذيبهم رسله واستهزائهم بهم ، ما كانوا يكسبون من متاع الدنيا ويجمعون من حطامها .

ثم ذكر ماهو كالنتيجة لما سلف فقال :

(فأصابهم سيئات ما كسبوا) أى فحل بهم جزاء سيئات ما كسبوا من الأعمال ، فعوجلوا بالخزى فى الدنيا كالخسف الذى لحق بقارون ، والصاعقة التى نزلت بقوم لوط ، وسيصيبهم النكال الدائم فى الآخرة .

ثم أوعد سبحانه مشركى قومه على ماسيئاتهم فى الدنيا والآخرة فقال :

(والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا) أى والذين كفروا بالله من قومك وظلموا أنفسهم سيصيبهم أيضا وبال السيئات التى اكتسبوها ، كما أصاب الذين من قبلهم . فأصابهم القحط سبع سنين متوالية وقتل صناديدهم يوم بدر ، وأسر منهم العدد الكثير .

(وما هم بمعجزين) أى وما هم بفائتين الله هربا يوم القيامة ، بل مرجعهم إليه ويصنع بهم ما شاء من العقوبة .

ثم أقام الدليل على قدرة الله وعظيم حكمته فقال :

(أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟) أى أو لم ير هؤلاء المشركون أن الله هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء تارة ، ويضيق على من يريد أخرى ، كما يشاهد من اختلاف الناس فى سعة الرزق وضيقه ، وليس ذلك لجهل فى المكاسب أو علم لديه ، فربما كان العاقل القادر ضيق الرزق ، والجاهل أو المريض ذا سعة وبسطة فى المال .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فى هذا لدلالات لقوم يؤمنون بالله ويقرون بوحدانيته ، وهم الذين يعلمون أن الذى يفعل ذلك هو الله لاسواه .

وإنما خص المؤمنين بذلك ، لأنهم المنتفعون بالآيات ، المتفكرون فيها .

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) .

شرح المفردات

الإسراف : تجاوز الحد فى كل ما يفعله المرء ، وكثر استعماله فى إنفاق المال وتبذيره، والمراد هنا الإفراط فى المعاصى ، لاتقنطوا : أى لاتيأسوا ، والإنابة: الرجوع. والإسلام لله : الإخلاص له ، أحسن ما أنزل إليكم من ربكم : هو القرآن ، بغتة : أى فجأة ، ياحسرتا : أى ياحسرتى وندمى ، فرّطت : أى قصرت ، فى جنب الله : أى فى عبادته وطاعته ، لمن الساخرين : أى المستهزئين ، كرة : أى رجعة .

المعنى الجملى

بعد أن بيّن وعيد الكافرين فيما سلف — أردفه بذكر رحمته وفضله على عباده المؤمنين بغفران ذنوبهم إذا هم تابوا وأنابوا إليه وأخلصوا له العمل ، ليكون فى ذلك مطمع لهؤلاء الضالين ومنبّهة لهم من ضلالهم .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : إن أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان ودعا مع الله إلهاً آخر ، وقتل النفس التى حرم الله لم يغفر له ، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا الآلهة وقتلنا النفس ونحن أهل شرك فأنزل الله (قل ياعبادى) الآية .

الإيضاح

(قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) أى قل أيها الرسول للمؤمنين الذين أسرفوا على أنفسهم وتجاوزوا حدود الله ، فارتكبوا محارمه وتركوا أوامره : لا تيأسوا من مغفرة الله ، فهو يغفر الذنوب جميعا لمن تاب إليه ولجأ إلى جنابه ، وإن كثرت وكانت كزبد البحر .

روى البخارى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل : « وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ » ونزل : « قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ».

والمراد من الآية الأولى قوله : « إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا » الآية.

وروى أحمد عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أحب

أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية : « قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » إلى آخر الآية ، فقال رجل يارسول الله فمن أشرك ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « ألا ومن أشرك — ثلاث مرات » .

وروى أحمد أيضا عن عمر بن عنبسة رضى الله عنه قال : « جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم شيخ كبير يتوكأ على عصا له فقال : يا رسول الله إن لى غدرات وفجرات ، فهل يُغفر لى ؟ قال صلى الله عليه وسلم : ألست تشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال بلى وأشهد أنك رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم قد غفر لك غدراتك وفجراتك » .

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة والإخلاص فى العمل ، ولا يقنطنّ عبد من رحمة الله ، فإن باب الرحمة واسع كما قال : « أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » وقال : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا » .

وروى الطبرانى من طريق الشعبى عن سُتَيْد بن شَكَل أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول : إن أعظم آية فى كتاب الله « اللهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ » وإن أجمع آية فى القرآن بخير وشر « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » وإن أكثر آية فى القرآن فرجا فى سورة الغرف « قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ » وإن أشد آية فى كتاب الله تفويضا « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ » فقال له مسروق : صدقت .

وبعد أن نهاهم عن القنوط أخبرهم بما يدفع ذلك ويرفعه ، فيحل الرجاء مكانه. وجاء بما لا يبقى بعده شك ولا يخالج القلب عند سماعه ظن فقال :

(إن الله يغفر الذنوب جميعا) أى إن الله يغفر كل ذنب ، كائنا ما كان

إلا ما أخرجه النص القرآنى ، وهو الشرك بقوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

فيالها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم ، الصادقين فى رجائه ، الخالعين لثياب القنوط ، الحافظين لسوء الظن بمن لايتعاظمه ذنب ، ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده ، المتوجهين إليه فى طلب العفو ، الملتجئين إليه فى مغفرة ذنوبهم .

ثم ذكر علة ذلك فقال :

(إنه هو الغفور الرحيم) بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد التوبة منها ...

فمن أبى هذا التفضل العظيم ، والعطاء الجسيم ، وظن أن تقنيط عباد الله وتأييسهم من رحمته — أولى بهم مما بشرهم الله به ، فقد ركب أعظم الشطط ، وغلط أقبح الغلط ، فإن التبشير هو الذى جاءت به نصوص الكتاب ، وهو المسلك الذى سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صح عنه من قوله : « يسّروا ولا تعسّروا ، وبشروا ولا تنفروا » .

وبعد أن وعد سبحانه بالمغفرة أمر بشيئين :

(١) الإنابة إليه بقوله : (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون) أى أيها الناس أنيبوا إلى ربكم بالتوبة ، وارجعوا إليه بالطاعة ، واستجيبوا إلى ما دعاكم إليه من توحيده وإفراد الألوهية له قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتجدوا نصيرا ولا معينا من عذابه النازل بكم .

(٢) اتباع الأحسن بقوله : (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون) أى واتبعوا ما أمركم به ربكم فى تنزيله ، واجتنبوا ما نهاكم عنه فيه ، من قبل أن يأتيكم العذاب فجأة وأنتم لاتعلمون به حتى يغشاكم ، ولا يخفى ما فى هذا من تهديد ووعيد .

ولما خوفهم بالعذاب ذكر علة ذلك فقال :

(١) (أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين) أى بادروا إلى العمل واحذروا أن تقول بعض الأنفس : ياحسرتى على تقصيرى فى طاعة الله ، وسخريتى واستهزائى بدين الله وكتابه، وبرسوله وبالمؤمنين.

(٢) (أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين) أى أو تقول : لو أن الله أرشدنى إلى دينه وطاعته ، لكنت ممن اتقى الله فترك الشرك والمعاصى .

(٣) (أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين) أى أو تقول حين رؤية العذاب : ليت لى رجعة إلى الدنيا فأكون من المهتدين المحسنين لعقيدتهم وأعمالهم .

وخلاصة ذلك — إن هذا المقصر تحسر على التفريط فى الطاعة ، وفقد الهداية ثم تمنى الرجعة إلى الدنيا لتدارك ما فات .

فأجابه سبحانه بقوله :

(بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) أى إنه لافائدة من ذلك ، فقد جاءتك آياتى فى الدنيا على لسانى رسولى الذى أرسلته إليك وفى كتابى الذى يتلوه عليك ، ويذكرك بما فيه من وعد ووعيد ، وتبشير وإنذار فكذبت بها واستكبرت عن قبولها ، وكنت ممن يعمل عمل الكافرين ويستنّ بسنتهم ويتبع مناهجهم .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » .

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) .

شرح المفردات

وجوههم مسودة : أى لما يظهر عليها من آثار الذل والحسرة ، والمثوى : المقام ، والمفازة : الظفر بالبغية على أتمّ وجه .

المعنى الجملى

بعد أن أوعد المشركين فيما سلف بما سيكون لهم من الأهوال يوم القيامة ، ووعد المتقين بما يمنحهم من الفوز والنعيم فى ذلك اليوم — أردف ذلك بذكر حال لكل منهما تبدو للعيان ، و يشاهدها كل إنسان ، يوم العرض والحساب .

الإيضاح

(ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) أى وترى أيها الرسول يوم القيامة وجوه الذين كذبوا على الله ، فزعموا أن له ولداً وأن له شريكا وعبدوا آلهة من دونه — مجللة بالسواد ، لما أحاط بها من الكآبة والحزن الذى علاها ، والغم الذى لحقها .

ثم علل هذا وأكده بقوله :

(أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين) أى أليست النار كافية لهم سجنا وموئلا ، ولهم فيها الخزى والهوان بسبب تكبرهم و إبائهم عن الانقياد للحق .

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم معنى الكبر فقال : « هو سفه الحق وغمص (احتقار) الناس » وفى حديث عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم « يحشر المتكبرون يوم القيامة كالذرّ ، يلحقهم الصّغار حتى يؤتى بهم إلى سجن جهنم » .

(وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم) أى وينجى الله من عذاب جهنم الذين اتقوا الشرك والمعاصى و ينيلهم ما يبتغون ، و يعطيهم فوق ما كانوا يؤملون .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم تفسير هذه الآية من حديث أبى هريرة قال : « يحشر الله مع كل امرئ عمله ، فيكون عمل المؤمن معه فى أحسن صورة وأطيب ريح ، فكلما كان رُعْبٌ أو خوف قال له : لا تُرَعْ فما أنت بالمراد به ولا أنت المعنىّ به ، فإذا كثر ذلك عليه ، قال فما أحسنك ؟ فمن أنت ؟ فيقول أما تعرفنى ؟ أنا عملك الصالح ، حملتنى على ثقلى ، فوالله لأحملنك ولأدفعن عنك ، فهى التى قال الله: « وَيُنَجِّى اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » .

ثم بين هذه المفازة فقال :

(لايمسهم السوء ولا هم يحزنون) أى لايمسهم أذى جهنم ولا يحزنون على ما فاتهم من مآرب الدنيا ، إذ هم قد صاروا إلى ما هو خير منه ، نعيم مقيم ، فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ورضوان من الله أكبر .

وخلاصة ذلك — إنهم أمنوا من كل فزع ، وبعدوا من كل شر ، وفازوا بكل خير .

اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) .

شرح المفردات

وكيل : أى قيّم بالحفظ والحراسة فيتولى التصرف على حسب الحكمة والمصلحة ، مقاليد : أى مفاتيح لفظ فارسى معرّب ، واحده إقليد معرب إكليد جمع جمعا شاذا ، ليحبطن عملك : أى ليذهبن هباء ولا يكون له أثر ، وما قدروا الله حق قدره : أى ما عظموه حق التعظيم على الوجه الذى يليق به ، والقبضة : المرة من القبض وتطلق على المقدار المقبوض ، بيمينه : أى بقدرته .

المعنى الجملى

بعد أن بسط الوعد والوعيد يوم القيامة لأهل التوحيد وأهل الشرك — عاد إلى ذكر دلائل الألوهية والوحدانية ، ثم انتقل إلى النعى على الكافرين فى أمرهم لرسوله بعبادة الأوثان والأصنام ، ثم بين أن الأنبياء جميعا أوحى إليهم ألا يعبدوا إلا الله وحده ، وألا يشركوا به سواه ، وأنهم إن فعلوا غير ذلك حبطت أعمالهم وكانوا من الخاسرين ، ثم كرر النعى عليهم مرة أخرى بأنهم لم يعرفوا الله حق معرفته ، إذ لو عرفوه لما جعلوا هذه المخلوقات الخسيسة مشاركة له فى العبودية .

الإيضاح

(الله خالق كل شىء) أى هو سبحانه الخالق للأشياء جميعا من خير وشر وإيمان وكفر بمباشرة المتصف بهما لأسبابهما ، وكلها تحت جبروته وقهره .

(وهو على كل شىء وكيل) أى وهو القائم على كل الأشياء يتولاها بحراسته وحفظه على حسب ما تقتضيه المصلحة ، فهى محتاجة إليه فى بقائها كما هى محتاجة إليه فى وجودها .

ثم فصل ذلك بعض التفصيل فقال :

(له مقاليد السموات والأرض) أى هو حافظ الخزائن ومدبرها ومالك مفاتيحها فله التصرف فى كل شىء مخزون فيهما .

والخلاصة — هو القادر عليهما والحافظ لهما .

أخرج أبو يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان قال : «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله : « لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فقال لى يا عثمان : لقد سألتنى عن مسألة لم يسألنى عنها أحد قبلك .

مقاليد السموات والأرض لا إله إلا الله والله أكبر ، وسبحان الله والحمد لله ، وأستغفر الله الذى لا إله إلا هو الأول والآخر والظاهر والباطن يحيى ويميت وهو حىّ لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير» وعلى هذا فالمراد أن هذه الكلمات يوحّد بها ويمجّد وهى مفاتيح خير السموات والأرض ، من تكلم بها أصابه خيرهما

(والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون) أى والذين كفروا بالأدلة التى وضعت فى الأكوان وجاءت فى القرآن ، دالة على وحدانية الله وعظيم قدرته وبديع حكمته — أولئك هم المغبونون حظوظهم من خيرات السموات والأرض ، لأنهم حرموا من ذلك فى الآخرة بخلودهم فى النار .

ثم أمر رسوله أن يوبخهم على أمره بعبادة الأصنام والأوثان فقال :

(قل أفغير الله تأمرونّى أعبد أيها الجاهلون) أى قل لمشركى قومك الداعين لك إلى عبادة الأصنام والقائلين لك : هو دين آبائك : أفتأمرونى أيها الجاهلون بعد مشاهدتى الآيات الدالة على تفرده سبحانه وتعالى بالألوهية — أن أعبد غيره ، والعبادة لا تصلح لشىء سواه .

روى عن ابن عباس «أن قريشا دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة ، ويزوجوه ما أراد من النساء ويطئون عقبه (أى يغطون دعوته ويزيلونها) وقالوا هذا لك يا محمد وتكفّ عن شتم آلهتنا ولا تذكرها

بسوء ، قال حتى أنظر ما يأتيني من ربي فنزل : « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » إلى آخر السورة ، ونزل (قل أفغير الله تأمرونّى — إلى قوله — من الخاسرين) » .

وعنه أيضا : إن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبادة آلهتهم وهم يعبدون معه إلهه .

ثم حذر وأنذر عباده من الشرك فقال :

(ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) أى ولقد نزل عليك الوحى من ربك بأنه إذا حصل منك إشراك به عبادة صنم أو وثن ليبطلنّ كل عمل لك من أعمال الخير كصلة رحم وبرّ ببائس فقير ولا تنال به ثوابا ولا جزاء ولتكونن ممن خسروا حظوظهم فى الدنيا والآخرة ، وأوحى إلى الرسل من قبلك مثل هذا .

فاحذر أن تشرك بالله شيئا فتهلك ، وهذا كلام سيق على سبيل الفرض والتقدير لتهييج المخاطب المعصوم ، والإيذان بشناعة الإشراك وقبحه ، حتى لينْهى عنه من لايكاد يفعله فكيف بغيره ؟ والحكم بحبوط عمل المشرك فى الآخرة مقيّد بما إذا مات وهو كذلك بدليل قوله فى الآية الأخرى : « وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » .

ثم رد عليهم ما أمروه به من عبادة الأصنام وأمره بعبادته وحده فقال :

(بل اللهَ فاعبد) أى لاتعبد ما أمرك به قومك ، بل اللهَ فاعبده دون سواه من الأنداد والأوثان .

(وكن من الشاكرين) لإنعامه عليك بما هداك من التوحيد والدعاء إلى دينه ، وما اختصك به من الرسالة .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(وما قدروا الله حق قدره) أى ماعظموه حق التعظيم ، إذ عبدوا غيره معه ، وهو العظيم الذى لا أعظم منه ، القادر على كل شىء ، المالك لكل شىء ، وكل شىء تحت قهره وقدرته .

روى البخارى عن ابن مسعود قال : «جاء حبْر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يامحمد : إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، تصديقا لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » الآية .

وأخرج الشيخان والنسائى وابن ماجه فى جماعة آخرين عن ابن عمر «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : « وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » وهو يقول هكذا بيده يحركها يُقبِلُ بها ويُدْبِر ، يمجّد الرب نفسه ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر حتى قلنا ليخرّنّ به » .

(والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) أى إن الأرض جميعاً تحت ملكه يوم القيامة يتصرف فيها كيف يشاء ، ولا يتصرف فيها سواه ، والسموات مطويات طى السجل للكتب بقدرته التى لا يتعاصى معها شىء ، وفى هذا رمز إلى أن مايشركونه معه فى الأرض أو فى السماء مقهور تحت سلطانه جل شأنه .

روى البخارى عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول: أنا الملك ، أين ملوك الأرض؟» .

وقد علمت أن السلف يجرون المتشابه على ما هو عليه ، وأن الخلف يؤولونه ، والأول أسلم ، والثانى أحكم .

قال صاحب الكشاف : والغرض من هـذا الكلام إذا أخذته بجملته ومجموعه — تصوير عظمته ، والتوقيف على كنه جلاله لاغير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقية أو جهة مجاز اه .

وقال سفيان بن عيينة : كل ما وصف الله تعالى به نفسه فى كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه اه .

(سبحانه وتعالى عما يشركون) به من المعبودات التى يجعلونها شركاء له مع القدرة العظيمة ، والحكمة الباهرة .

وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠)

شرح المفردات

الصور : القرن ينفخ فيه ، صعق : أى غشى عليه ، ينظرون : أى ينتظرون ماذا يفعل بهم ؟ ، وأشرقت الشمس : أضاءت ، وشرقت : طلعت ، بنور ربها : أى عدله ، ووضع الكتاب : أى ووضعت صحائف الأعمال بأيدى العاملين ، بالحق : أى بالعدل ، ماعملت : أى جزاء ما عملت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عظمته تعالى بأنه خالق كل شىء وهو الوكيل على كل شىء ، وبيده مقاليد السموات والأرض — أردف هنا بذكر دلائل أخرى تدل على كمال قدرته وعظيم سلطانه ، بذكر مقدمات يوم القيامة من نفخ الصور النفخة الأولى التى يموت بها أهل الأرض جميعا ، ثم النفخة الثانية التى يقوم بها الناس جميعا من قبورهم ، ثم الفصل بينهم للجزاء والحساب ، فتوفى كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر ، وهو سبحانه العليم بأفعالهم جميعا من خير أو شر .

الإيضاح

(ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون) بين سبحانه ما يكون بعد قبض الأرض وطى السماء والنفخ فى الصور ، وإنما هما نفختان يموت الخلق فى الأولى منهما ويحيون فى الثانية بعد أن كانوا عظاما ورفاتا .

أخرج ابن ماجه والبزار وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا «إن صاحبى الصور بأيديهما قرنان يلاحظان النظر ؟ متى يؤمران » ؟

وروى أبوداود عن أبى سعيد الخُدْرى قال : « ذكر رسول الله صاحب الصور وقال : عن يمينه جبريل وعن يساره ميكائيل » .

وليس فى القرآن ولا فى صحيح الأخبار مايدل على تعيين من استثناهم الله من الصعق والفزع ، ومن ثم قال قتادة لاندرى من هم ؟ .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » .
وقوله : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً » .

وقوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ » .

(وأشرقت الأرض بنور ربها) أى وأضاءت أرض المحشر بما يقيمه فيها من الحق والعدل ، ويبسطه من القسط فى الحساب . ووزن الحسنات والسيئات .

(ووضع الكتاب) أى وضعت صحائف الأعمال بأيدى العاملين كما قال : « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا » . وقال فى آية أخرى : « مَالِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا » .

(وجىء بالنبيين) ليكونوا شهداء على أممهم كما قال : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا » .

(والشهداء) أى الحفظة من الملائكة الذين يقيدون أعمال العباد خيرها وشرها كما يدل على ذلك قوله : « وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ » . فالسائق يسوق للحساب ، والشهيد يشهد عليها .

وبعد أن بين أنه يحضر فى محفل القيامة جميع مايحتاج إليه فى فصل الحكومات وقطع الخصومات — بين أنه يوصل إلى كل أحد حقه كاملا غير منقوص ، ودل على ذلك بأربع عبارات :

(١) (وقضى بينهم بالحق) أى وقضى بينهم بالعدل والصدق .

(٢) (وهم لايظلمون) بنقص ثواب ولا زيادة فى عقاب ، ونحو الآية قوله : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » . وقوله : « إِنَّ اللهَ لاَيَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا » .

(٣) (ووفيت كل نفس ما عملت) أى وأعطيت كل نفس جزاء ما عملت جزاء كاملا .

(٤) (وهو أعلم بما يفعلون) فى الدنيا دون حاجة إلى كاتب ولا حاسب فلا يفوته شىء من أعمالهم ، ومن ثَمّ يكون حكمه بينهم بالقسطاس المستقيم .

والخلاصة — إنما وضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء لتكميل الحجة وقطع المعذرة ، لا لحاجة إليها فى علم الله بما يعملون وما يقولون ، ثم جزائهم على ما قدموا من خير أو شر .

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) .

شرح المفردات

السوق : الحث على السير بعنف وإزعاج علامة على الإهانة والاحتقار ، والزمر : الأفواج المتفرقة بعضها فى إثر بعض ، والخزنة : واحدهم خازن نحو سدنة وسادن ، وينذرونكم : أى يخوفونكم ، حقت : أى وجبت .

المعنى الجملى

بعد أن شرح أحوال أهل القيامة على سبيل الإجمال بقوله : « وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ » — فصل ذلك فذكر ما يحل بالأشقياء من الأهوال وما يلقونه من التأنيب والتوبيخ من خزنة جهنم على طريق السؤال والجواب التهكمى وهو أشد وقعاً على الأبىّ العيوف الذى تأبى نفسه الهوان والاحتقار .

الإيضاح

(وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا) أى وسيق الكافرون بربهم المشركون به الأصنام والأوثان إلى جهنم سوقا عنيفا ، أفواجا متفرقة بعضها فى إثر بعض على حسب ترتب طبقاتهم فى الضلال والشر بزجر وتهديد ووعيد ، كما يساق المجرمون فى الدنيا إلى السجون جماعات جماعات مع الإهانة والتحقير على ضروب شتى .

ونحو الآية قوله : «يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا» أى يدفعون إليها دفعاً.

(حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها) أى حتى إذا وصلوا إليها فتحت لهم أبوابها سريعا ليدخلوها ، كأبواب السجون لا تزال مغلقة حتى يأتى أرباب الجرائم الذين يسجنون فيها ، فتفتح ليدخلوها ، فإذا دخلوها أغلقت عليهم .

ثم ذكر سؤال الخزنة لهم على طريق التوبيخ والإهانة فقال :

(وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟) أى ألم يأتكم رسل من جنسكم تفهمون ماينبئونكم به من طاعة ربكم والاعتراف بوحدانيته وترك الشرك به ، ويسهل عليكم مراجعتهم حين يقيمون عليكم الحجج والبراهين مبينين صدق مادعوكم إليه ، وينذرونكم أهوال هذا اليوم ؟

فأجابوهم معترفين ولم يقدروا على الجدل الذى كانوا يتعللون به فى الدنيا لوضوح السبل أمامهم ، ولا سبيل حينئذ إلى الإنكار والجحود .

(قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) أى قالوا بلى قد أتانا رسل من ربنا فأنذرونا وأقاموا الحجج والبراهين ، ولكنا كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة والضلالة ، فعدلنا بسوء اختيارنا عن الحق إلى الباطل ، وفعلنا الشر دون الخير ، وعبدنا ما لايضر ولاينفع وتركنا عبادة الواحد القهار .

ونحو الآية قوله : « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ » .

وبعد أن اعترفوا هذا الاعتراف .

(قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها) أى قالت لهم الملائكة الموكلون بعذابهم : ادخلوا جهنم ماكثين فيها أبداً لاخروج لكم منها ولا زوال لكم عنها .

(فبئس مثوى المتكبرين) أى وبئس المصير ، وبئس المقيل لكم بسبب تكبركم فى الدنيا ، وإبائكم عن اتباع الحق ، فهو الذى صيركم إلى ما أنتم فيه ، فبئس الحال وبئس المآل .

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال الأشقياء وما يلاقونه يوم القيامة من الأهوال — أردفها بذكر أحوال السعداء وما يلاقونه إذ ذاك من النعيم وما يقال لهم ومايقولون . ثم أخبر بأن ملائكته محدقون حول العرش يسبحون بحمد ربهم ويعظمونه وينزهونه عن النقائص ، وأنه سيقضى بين الخلائق بالعدل ، وأن أولئك المتقين سيقولون: الحمد لله رب العالمين على ما تفضل به علينا وأنعم .

الإيضاح

(وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا) أى وسيق المتقون إلى الجنة جماعة إثر جماعة على النجائب وفودا إلى الجنة ، المقربون فالأبرار ثم الذين يلونهم ثم الذين

يلونهم ، كل طائفة منهم مع من يشا كلهم ، الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع أشكالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم .

والمراد بالسوق هنا الإسراع بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يُفعَل من يكرّم من الوافدين على بعض الملوك ؛ وبالسوق المتقدم طردهم إلى العذاب والهوان كما يفعل بالأسير إذا سيق إلى الحبس أو القتل ، فشتان مابين السوقين .

(حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها) أى حتى إذا وصلوا إليها وقد فتحت لهم أبوابها ، كما تفتح الخدم باب المنزل للضيف قبل قدومه وتقف منتظرة حضوره فرحا بمقدمه — فرحوا بما أفاد الله به عليهم من النعيم ، وبما شاهدوا مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : « ما منكم من أحد يتوضأ فيُسْبِغُ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » أخرجه مسلم وغيره .

وروى عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب درىّ فى السماء إضاءة » .

وأخرج الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فى الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى الريان لايدخله إلا الصائمون » .

ثم أخبر سبحانه أن خزنة الجنة يسلمون على المؤمنين فقال :

(وقال لهم خزنتها سلام عليكم) أى وقال لهم الخزنة : سلام عليكم من جميع المكاره والآلام ، فلا يعتريكم مكروه بعد ذلك .

(طبتم) نفسا مما أتيح لكم من النعيم المقيم ، وقد يكون المعنى : طبتم فى الدنيا فلم تدنسوا أنفسكم بالشرك والمعاصى ، وطاب سعيكم ، وطاب جزاؤكم .

(فادخلوها خالدين) أى فادخلوها ما كثين فيها أبدا لا زوال ولا فناء ولا تحوّل عنها .

(وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده) أى وقال المؤمنون إذا عاينوا ذلك النعيم المقيم والعطاء العظيم فى الجنة : الحمد لله الذى صدقنا ما وعدنا به على ألسنة رسله الكرام ، كما دعوا بذلك فى الدنيا وقالوا : « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقالوا : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ » .

(وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء) أى وجعلنا نتصرف فى أرض الجنة تصرف الوارث فيما يرث ، فنتخذ منها مباءة ومسكنا حيث شئنا .

(فنعم أجر العاملين) أى فنعم الأجر أجرنا على عملنا ، وثوابنا الذى أعطيتنا .

(وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم) أى وترى أيها الرائى الملائكة محيطين بجوانب العرش قائمين بجميع ما يطلب منهم ، فيسمع لحفوفهم صوت التسبيح والتقديس ، ويصلّون حول العرش شكرا لربهم وتنزيها له عن كل نقص .

(وقضى بينهم بالحق) أى وقضى بين العباد بالعدل ، فأدخل بعضهم الجنة وبعضهم النار ، أعاذنا الله منها .

(وقيل الحمد لله رب العالمين) أى وختمت خاتمة القضاء بينهم بالشكر للذى بدأ خلقهم وصوّرهم فأحسن صورهم ، ومن له ملك السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات التى لا يعلم عدّها إلا هو .

وقد بدأ سبحانه هذه الآية بالحمد وختمها بالحمد ، للتنبيه إلى تحميده فى بداية كل أمر ونهايته .

وقال قتادة : « افتتح الخلق بالحمد فى قوله : « اَلْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » واختتم بالحمد فى قوله تبارك وتعالى : « وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

اللهم صل على محمد عبدك ورسولك خاتم النبيين والمرسلين صلاة دائمة إلى يوم الدين .

مجمل مشتملات هذه السورة الكريمة

(١) وصف الكتاب الكريم .
(٢) الأمر بعبادة الله وحده والنعى على المشركين فى عبادتهم للأوثان والأصنام .
(٣) إقامة الأدلة على وحدانية الله .
(٤) طبيعة المشرك فى السراء والضراء .
(٥) ضرب الأمثال فى القرآن وفائدة ذلك .
(٦) تمنى المشركين الفداء حين يرون العذاب .
(٧) الوعد بغفران ذنوب من أسرفوا على أنفسهم إذا تابوا .
(٨) ما يرى على وجوه أهل النار من الكآبة والحزن .
(٩) ذكر أحوال يوم القيامة .
(١٠) وصف ذهاب أهل النار إلى المحشر وما يشاهدونه من الأهوال .
(١١) وصف ذهاب أهل الجنة وما يشاهدونه فيها من النعيم المقيم .
(١٢) بعد فصل القضاء يقول أهل الجنة (الحمد لله رب العالمين) .

سورة غافر

هى مكية إلا آيتى ٥٦، ٥٧ فمدنيتان ، وآيها خمس وثمانون ، نزلت بعد سورة الزُّمر.

ومناسبتها ما قبلها :

(١) إنه ذكر فى سابقتها ما يئول إليه حال الكافر وحال المؤمن ، وذكر هنا أنه غافر الذنب ، ليكون ذلك استدعاء للكافر إلى الإيمان والإقلاع عن الكفر .

(٢) إنه ذكر فى كل منهما أحوال يوم القيامة ، وأحوال الكفار فيه وهم فى المحشر وهم فى النار .

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : آل حم ديباج القرآن ، وعنه أيضا إذا وقعت فى آل حم فقد وقعت فى روضات دمثات أتأنق فيهن. وقال ابن عباس رضى الله عنهما: إن لكل شىء لبابا ولباب القرآن آل حم ، وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لكل شىء ثمرة ، و إن ثمرة القرآن ذوات حم هن روضات حسان مخصبات متجاورات ، فمن أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليقرأ الحواميم» . وعنه أيضا « مثل الحواميم فى القرآن كمثل الحبرات فى الثياب » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) .

الإيضاح

(حمٓ) تقدم الكلام فى أمثال هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور بما يغنى عن إعادته هنا ، وقد اخترنا هناك أن أحسن الآراء فى ذلك أنها كلمات يراد بها

التنبيه فى أول الكلام نحو (ألا) و (يا) وينطق بأسمائها فيقال (حاميم) بتفخيم الألف وتسكين الميم، ويجمع على حواميم وحواميات، وأنكر ذلك الجواليقى والحريرى وابن الجوزى وقالوا لا يقال ذلك بل يقال آل حم، ويؤيد ذلك أن صاحب الصحاح نقل عن الفرّاء أن قول العامة الحواميم ليس من كلام العرب، وحديث ابن مسعود وقدم تقدم: إذا وقعت فى آل حم فقد وقعت فى روضات دمثات أتأنق فيهن، وعلى هذا قول الكميت بن زيد فى الهاشميات:

وجدنا لكم فى آل حم آية تأولها منا تقىّ ومُعْرِب

يريد بذلك قوله تعالى: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى».

(تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) أى هذا القرآن تنزيل من الله الغالب القاهر فى ملكه الكثير العلم بخلقه وبما يقولون وما يفعلون.

وفى هذا إيماء إلى أنه ليس بمنقول ولا مما يجوز أن يكذّب به.

(غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول) أى وهو الذى يغفر ماسلف من الذنوب، ويقبل التوبة فى مستأنف الأزمنة لمن تاب وخضع، وهو شديد العقاب لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا وعتا عن أوامر الله وبغى، المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والنعم التى لا يطيقون القيام بشكرها ولا شكر واحدة منها كما قال: «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا».

وقد ذكر غافر الذنب وقابل التوب لترغيب عباده العاصين، وذكر شديد العقاب لترهيبهم، وفى مجموع هذا الحث على فعل المراد من تنزيل الكتاب وهو التوحيد والإيمان بالبعث والإخلاص لله فى العمل والإقبال عليه، وقد جمع القرآن هذين الوصفين فى مواضع كثيرة منه كقوله: «نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ» ليبقى العبد بين الرجاء والخوف.

(لا إله إلا هو) فلا نظير له ، فيجب اتباع أوامره وترك نواهيه .

(إليه المصير) أى إليه وحده المرجع والمآب ، فيجازى كل نفس بما كسبت .

أخرج أبو عبيد وابن سعد وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ حم المؤمن إلى — إليه المصير ، وآية الكرسى حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى ، ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح » .

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) .

شرح المفردات

الجدل : شدة اللدد فى الخصومة ، تقلبهم : أى تصرفهم فيها للتجارة وطلب المعاش ، والأحزاب : الجماعات الذين تحزبوا واجتمعوا على معاداة الرسل ، وهمّت : أى عزمت ، ليأخذوه : أى ليقتلوه ويعذبوه ، ليدحضوا : أى ليزيلوا ، حقت : أى وجبت ، كلمة ربك : أى حكمه بالإهلاك .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن القرآن كتاب أنزله لهداية الناس وسعادتهم فى دنياهم وآخرتهم إذا هم عملوا بهديه — ذكر أحوال من يجادل فيه لغرض إبطاله وإخفاء

نوره ، ثم أرشد رسوله ألا يغتر بأحوال أولئك المجادلين وتركهم سالمين فى أبدانهم وأموالهم يتصرفون فى البلاد للتجارة لسعة الرزق والتمتع بزخرف الدنيا ، فإنه سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر كما فعل بأمثالهم من الأمم الماضية ممن كذبوا رسلهم فحل بهم البوار فى الدنيا وسينزل بهم النكال فى الآخرة فى جهنم و بئس القرار .

الإيضاح

(ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا) أى ما يخاصم فى القرآن بالطعن فيه وتكذيبه كقولهم مرة إنه شعر ، وأخرى إنه سحر وثالثة إنه أساطير الأولين إلى أشباه ذلك من سخيف المقال — إلا الذين جحدوا به وأعرضوا عن الحق مع ظهوره .

وهذا النوع من الجدل هو المذموم ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « لا تماروا فى القرآن فإن المراء فيه كفر » أما الجدل لتقرير الحق و إيضاح الملتبس ، وكشف المعضل ، واستنباط المعانى ، ورد أهل الزيغ بها ، ورفع اللبس ، ودفع ما يتعلق به المبطلون من متشابهات القرآن ، فهو وظيفة الأنبياء ، ومنه قوله تعالى حكاية عن قوم نوح لنوح « يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا » .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فسمع أصوات رجلين اختلفا فى آية ، فخرج يعرف فى وجهه الغضب ، فقال إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم فى الكتاب » رواه مسلم .

وقال أبو العالية : آيتان ما أشدهما علىّ : « مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا » الآية ، وقوله : « وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ » .

ولما حكم سبحانه على المجادلين فى آيات الله بالكفر نهى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يغتر بشىء من حظوظهم الدنيوية فقال .

(فلا يغررك تقلبهم فى البلاد) أى فلا يغررك ما يفعلونه من التجارة النافقة

فى البلاد ، وما يحصلون عليه من المكاسب فى رحلة الشتاء فى اليمن ورحلة الصيف فى الشام ، ثم يرجعون سالمين غانمين ، فإنهم معاقبون عما قليل ، وهم وإن أمهلوا فإنهم لايهملون . قال الزجاج : لايغررك سلامتهم بعد كفرهم ، فإن عاقبتهم الهلاك .

وفى هذا تسلية له صلى الله عليه وسلم ووعيد لهم .

ثم قال مسليا رسوله عن تكذيب من كذبه من قومه ، بأن له أسوة فى سلفه الأنبياء ، فإن أقوامهم كذبوهم وما آمن منهم إلا قليل فقال :

(كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم) أى كذبت قوم نوح والأمم الذين تحزبوا على أنبيائهم بالتكذيب فحلت بهم نقمتنا بعد بلوغ أمدهم كما هى سنتنا فى أمثالهم من المكذبين كعاد وثمود ومن بعدهم ، وكانوا فى جدلهم على مثل الذى عليه قومك .

(وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه) أى وحرصت كل أمة على تعذيب رسولهم بحبسه و إصابة ما أرادوا منه . وقال قتادة والسدى ليقتلوه ، فقد جاء الأخذ بمعنى الإهلاك فى قوله تعالى : « فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » .

(وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق) أى وخاصموا رسولهم بالباطل بإيراد الشبه التى لاحقيقة لها كقولهم : « مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا » ليبطلوا به الحق الذى جاء به من عند الله ، وليطفئوا النور الذى أوتيه . قال يحيى بن سلام : جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا الإيمان .

(فأخذتهم فكيف كان عقاب) أى فأهلكتهم واستأصلت شأفتهم فلم أبق منهم دياراً ولا نافخ نار وصاروا كأمس الدابر ، و إنكم لتمرون على ديارهم مصبحين وممسين كما قال : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ » وهكذا سأفعل بقومك إن هم أصروا على الكفر والجدل فى آيات الله و إلى ذلك أشار بقوله .

(وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) أي وكما حق على الأمم التي كذبت رسلها ، وقصصت عليك خبرها أن يحل بها عقابي — وجبت كلمة ربك على الذين كفروا بالله من قومك ، لأن الأسباب واحدة وهي كفرهم وعنادهم للحق واهتمامهم بإطفاء نور الله الذي بثه في الأرجاء لإصلاح نظم العالم وسعادته في دينه ودنياه ، وارتقاء النفوس البشرية والسموّ بها عن الاستخذاء إلى شجر أو حجر أو حيوان طمعا في خير يرجى منه وشفاعة تنفع عند الله .

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) .

شرح المفردات

العرش : مركز تدبير العالم كما تقدم إيضاح ذلك في سورة يونس ، وندع أمر وصفه إلى الله عالم الغيب فهو العليم بعرشه ووصفه ، وقهم : أي احفظهم من وقيته كذا أي حفظته ، السيئات : أي الجزاء المرتب عليها .

المعنى الجملي

بعد أن أبان ما أظهره المشركون للمؤمنين من العداوة ، ومجادلتهم للرسل بالباطل ، لإطفاء نور دعوتهم — أردف ذلك ببيان أن أشرف المخلوقات وهم

الملائكة الذين يحملون العرش والحافّون حول العرش — يحبون المؤمنين ويطلبون لهم المغفرة من ربهم ، فلا تبال أيها الرسول بهؤلاء المشركين ولا تقم لهم وزنا ، وكفاك نصرة حملة العرش والحافين حوله.

الإيضاح

(الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا) أى إن الملائكة الذين يحملون عرش ربهم ، والملائكة الذين هم حوله ينزهون الله متلبسين بحمده على نعمه ، ويقرون بأن لا إله إلا هو ولايستكبرون عن عبادته ، ويسألون أن يغفر لمن أقروا بمثل ما أقروا به من توحيد الله والبراءة من كل معبود سواه .

ونحن نؤمن بما جاء فى الكتاب الكريم من حمل الملائكة للعرش ، ولا نبحث عن كيفيته ولا عن عدد الحاملين له ، فإن ذلك من الشؤون التى لم يفصلها لنا الكتاب ولا السنة المتواترة فنكل أمر علمها إلى ربنا ، وعلينا التسليم بما جاء فى كتابه .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الحمل يراد به التدبير والحفظ ، وأن الحفيف والطواف بالعرش يراد به القرب من ذى العرش سبحانه ، ومكانة الملائكة لديه ، وتوسطهم فى نفاذ أمره .

ثم بين سبحانه كيفية استغفارهم للمؤمنين فقال حاكيا عنهم :

(ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما) أى وسعت رحمتك وعلمك كل شىء من خلقك ، والمراد أن رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك يحيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم .

(فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) أى فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأقلعوا عن ذنوبهم ، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك

المنكرات ، واجعل بينهم وبين عذاب الجحيم وقاية بأن تلزمهم الاستقامة ، وتتم نعمتك عليهم ، فإنك وعدت من كان كذلك بالبعد عن هذا العذاب ولا يبدل القول لديك . قال مُطَرِّف بن عبد الله : وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة ، ووجدنا أغش عباد الله لعباد الله الشيطان ، وتلا هذه الآية .

وقال خلف بن هشام البزار القارئ : كنت أقرأ على سليم بن عيسى ، فلما بلغت « وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا » بكى ، ثم قال ياخلف : ما أكرم المؤمن على الله ، يكون نائما على فراشه والملائكة يستغفرون له .

(ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) أى ربنا وأدخلهم الجنات التى وعدتهم إياها على ألسنة رسلك ، وأدخل معهم فى الجنة الصالحين من الآباء والأزواج والذرية ، لتقرّ بهم أعينهم ، فإن الاجتماع بالأهل والعشيرة فى موضع السرور يكون أكمل للبهجة وأتم للأنس .

قال سعيد بن جُبير : يدخل الرجل الجنة فيقول يارب أين أبى وجدى وأمى ؟ وأين ولدى وولد ولدى ؟ وأين زوجاتى ؟ فيقال إنهم لم يعملوا كعملك ، فيقول : يارب كنت أعمل لى ولهم ، فيقال أدخلوهم الجنة ، ثم تلا : « الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ » إلى قوله : « وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » ويقرب من هذه الآية قوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » .

(إنك أنت العزيز الحكيم) أى أنت الغالب الذى لا يمتنع عليه مقدور ، الحكيم الذى لايفعل إلا ما تقتضيه الحكمة من الأمور .

ثم عمموا فى الدعاء لهم بأن تمنع عنهم العقوبات الدنيوية والأخروية فقالوا :

(وقهم السيئات) أى واصرف عنهم سوء عاقبة سيئاتهم التى كانوا قد أتوها قبل توبتهم ، ولا تؤاخذهم بذلك فتعذبهم به .

(ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) أى ومن تصرف عنه سوء عاقبة ما ارتكب من السيئات يوم القيامة فقد رحمته ونجيته من عذابك .

(وذلك هو الفوز العظيم) أى وهذا هو الفوز الذى لا فوز أجمل منه ، ولا مطمع وراءه لطامع ، إذ وجدوا بأعمال منقطعة نعيما لاينقطع ، و بأفعال قليلة ملكا لاتصل العقول إلى كنه جلاله .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ، فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ؟ (١١) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) .

شرح المفردات

المقت : أشد البغض ، والروح : الوحى ، يوم التلاق : هو يوم القيامة ؛ وسمى بذلك لالتقاء الخالق بالمخلوق ، بارزون : أى ظاهرون لايسترهم جبل ولا أكمة ولا نحوهما .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أحوال المشركين المجادلين فى آيات الله — أردف ذلك ببيان أنهم يوم القيامة يعترفون بذنوبهم و باستحقاقهم ما سيحل بهم من النكال والوبال ، و يسألون الرجوع إلى الدنيا ليتلافوا مافرط منهم .

و بعد أن هددهم أعقب ذلك بما يدل على كمال قدرته وحكمته باظهاره للآيات و إنزاله للأرزاق ، وأنه أرفع الموجودات ، لأنه مستغن عن كل ماسواه ، وكل ماسواه محتاج إليه ، وأنه ينزل الوحى على من يشاء من عباده ، لينذرهم يوم الجزاء والحساب .

الإيضاح

(إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون) أى إن الكافرين تناديهم الملائكة يوم القيامة وهم يتلظون النار ويذوقون العذاب فيمقتون أنفسهم و يبغضونها أشد البغض بسبب ما أسلفوا من سيء الأعمال التى كانت سبب دخولهم فى النار — إن مقت الله لكم فى الدنيا حين كان يعرض عليكم الإيمان فتكفرون — أشد من مقتكم أنفسكم اليوم وأنتم على هذه الحال .

والخلاصة — إن مقت الله لأهل الضلال حين عرض عليهم الإيمان فى الدنيا

فتركوه وأبوا أن يقبلوه - أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة ، قاله قتادة ومجاهد والحسن البصرى وابن جرير .

ثم ذكر ما يقولونه حين يخاطبون بهذا الخطاب فقال :

(قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) أى قالوا ربنا خلقتنا أمواتا وأمتنا حين انقضاء آجالنا ، وأحييتنا أوّلا بنفخ الأرواح فينا ونحن فى الأرحام ، وأحييتنا باعادة أرواحنا إلى أبداننا حين البعث نقله ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس وابن مسعود ، وجعلوا ذلك نظير آية البقرة : « كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ » .

(فاعترفنا بذنوبنا) أى فاعترفوا أنهم أنكروا البعث فكفروا وفعلوا من الذنوب مالا يحصى عدّا ، لأن من لم يخش عاقبة يتماد فى غيه ، ولكن حين رأوا الإماتة والإحياء قد تكررا عليهم علموا أن الله قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء فاعترفوا بذنوبهم التى اقترفوها .

ثم طلبوا الرجوع إلى الدنيا لإصلاح ما فاتهم فقالوا :

(فهل إلى خروج من سبيل) أى فهل أنت معيدنا إلى الدنيا لنعمل غير الذى كنا نعمل فإنك قادر على ذلك .

وهذا أسلوب يستعمل فى التخاطب حين اليأس ، قالوه تحيّرا أو تعللا عسى أن يتاح لهم الفرج .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ . رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ » وقوله : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ » .

فما كان جوابهم عما طلبوا إلا الرفض الباتّ مع ذكر السبب فقال :

(ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا) أى لاسبيل إلى رجعتكم إلى الدار الدنيا ، لأن طباعكم لا تقبل الحق بل تنفيه ، فإنكم كنتم فيها إن دعى الله وحده كفرتم وأنكرتم أن تكون الألوهية له خاصة ، وإن أشرك به مشرك صدقتموه وآمنتم بقوله ، فأنتم هكذا تكونون لو رُددتم إلى الدنيا كما قال : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » .

ثم ذكر ما ترتب على أعمالهم التى عملوها وما ضروا إلا أنفسهم فقال :

(فالحكم لله العلى الكبير) أى فالحكم حينئذ لله الذى لايحكم إلا بالحق ، ولا يقضى إلا بما تقتضيه الحكمة ، وهو ذو الكبرياء والعظمة الذى ليس كمثله شىء ومن ثم اشتدت سطوته بمن أشركوا به ، واقتضت حكمته خلودهم فى النار ، فلا سبيل إلى خروجكم منها أبدا إذ أشركتم به سواه .

ثم ذكر ما يدل على كبريائه وعظمته فقال :

(هو الذى يريكم آياته) أى هو الذى يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه فى العالم العلوى والسفلى من الآيات العظام الدالة على كمال خالقها وقدرة مبدعها وتفرده بالألوهية كما قال :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

ثم خصص من هذه الآيات ما هم فى أشد الحاجة إليه وهو المطر فقال :

(وينزل لكم من السماء رزقا) أى وهو الذى ينزل لكم المطر الذى يخرج به من الزرع والثمار ما تشاهدونه مما هو مختلف الألوان والطعوم والروائح والأشكال ، مما أبدعته يد القدرة ووشته بأبدع الحلى والمناظر .

(وما يتذكر إلا من ينيب) أى وما يعتبر بتلك الآيات ، ويستدل بها على عظمة خالقها ، إلا من ينيب إلى ربه ، ويتفكر فى بديع ما خلق ، وعظيم ما أوجد ويترك التقليد واتباع الهوى .

والخلاصة — إن دلائل التوحيد مركوزة فى العقول لايحجبها إلا الاشتغال بعبادة غير الله ، فإذا أناب العبد إلى ربه زال الغطاء ، وظفر بالفوز ، وظهرت له سبل النجاة .

ولما ذكر مانصبه من الأدلة على التوحيد أمر عباده بدعائه وإخلاص الدين له فقال :

(فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) أى إذا كان الأمر كما ذكر من اختصاص التذكير بمن ينيب فادعوا الله وحده مخلصين له العبادة التى أمركم بها ، وخالفوا المشركين فى مسالكهم ، ولا تلتفتوا إلى كراهتهم لذلك ، ودعوهم يموتوا بغيظهم ويهلكوا بحسرتهم .

وقد ثبت فى الصحيح عن عبد الله بن الزبير «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عقب الصلوات المكتوبة : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لاحول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة ، وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لايستجيب دعاء قلب غافل لاه» .

وبعد أن ذكر من صفات كبريائه كونه مظهرا للآيات منزلا للأرزاق — ذكر ثلاث صفات أخرى تدل على الجلال والعظمة فقال :

(١) (رفيع الدرجات) أى إنه أرفع الموجودات وأعظمها شأنا ، لأن كل شىء محتاج إليه ، وهو مستغن عما عداه ، وإنه أزلى أبدى ليس لوجوده أول ولا آخر ، وإنه العالم بكل شىء « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » .

(٢) (ذو العرش) أى إنه مالك العرش ومدبره ، فهو مستول على عالم الأجسام

وأعظمها العرش ، كما هو مستول على عالم الروحانيات وهى مسخرة له ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(٣) (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده) أى يلقى الوحى بقضائه على من يشاء من عباده الذين يصطفيهم لرسالته ، وتبليغ أحكامه إلى من يريد من خلقه .

ونحو الآية قوله : « يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ » وقوله : « وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ » .

(لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون) أى لينذر بالعذاب يوم يلتقى العابدون والمعبودون ، يوم هم ظاهرون لا يكنّهم شىء ، ولا يسترهم شىء .

(لا يخفى على الله منهم شىء) فيعلم ما فعله كل منهم ، فيجازيه على حسب ما قدمت يداه ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ » .

ويقال عند بروز الخلق :

(لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) أى يقول الرب تعالى : لمن الملك اليوم ؟ فلا يجيبه أحد ، فيجيب سبحانه فيقول ذلك أى هو الواحد الذى لا مثل له ، القهار لكل شىء سواه بقدرته ، الغالب بعزته . وقيل : المجيب هم أهل المحشر فقد روى أبو وائل عن ابن مسعود قال : يُحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة لم يُعص الله عز وجل عليها ، فيؤمر مناد ينادى « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ » فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم « لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » يقول المؤمنون هذا الجواب سرورا وتلذذا ، ويقوله الكافرون غما وانقيادا وخضوعا .

وبعد أن ذكر صفات قهره فى ذلك اليوم — أردفها ببيان صفات عدله وفضله فقال :

(اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم) أى اليوم يثاب كل عامل بعمله ، فيلاقى أجره ، ففاعل الخير يجزى الخير وفاعل الشر يجزى بما يستحق ، لايبخس أحد ما استوجبه من أجر عمله فى الدنيا فينتقص منه إن كان محسنا ، ولا يحمل على مسىء إثم ذنب لم يعمله .

روى مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن ربه « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا — إلى أن قال — يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله تبارك وتعالى ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه »

ثم بين سبحانه أنه يصل إلى الخلق فى ذلك اليوم ما يستحقون بلا إبطاء فقال :

(إن الله سريع الحساب) أى إن الله سريع حسابه لعباده على أعمالهم التى عملوها فى الدنيا ، فيحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفسا واحدة ، لإحاطة علمه بكل شىء فلا يعزب عنه مثقال ذرة .

أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال : « يجمع الله الخلق كلهم يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط ، فأول ما يتكلم أن ينادى مناد لمن الملك اليوم — إلى قوله الحساب » .

ونحو الآية قوله : « مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » وقال : « وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » .

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ

(١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) .

شرح المفردات

يوم الآزفة : يوم القيامة وسميت بذلك لقربها ؛ يقال أزف السفر : أى قرب ، قال :

أزف الترحّلُ غير أنّ ركابنا   لما تَزَلْ برحالنا وكأنْ قَدِ

والحناجر : واحدها حنجرة أوحنجور كحلقوم لفظا ومعنى ، وهى لحمة بين الرأس والعنق ، كاظمين : أى ممسكين أنفسهم على قلوبهم لئلا تخرج ، والحميم : القريب ، خائنة الأعين : يراد بها النظر إلى ما لايحل ، ما تخفى الصدور : أى ما تكتمه الضمائر.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن الأنبياء ينذرون الناس بيوم التلاق — أعقب ذلك بذكر أوصاف هائلة تصطك منها المسامع وتشيب من هولها الولدان لهذا اليوم المهيب.

الإيضاح

(وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) أى وأنذر أيها الرسول مشركى قومك يوم القيامة ، ليقلعوا عن قبيح أعمالهم ، وذميم معتقداتهم التى يستحقون عليها شديد العذاب ، ذلك اليوم الذى يعظم فيه الخوف حتى ليخيل أن القلوب قد شخصت من الصدور ، وتعلقت بالحلوق ، فيرومون ردها إلى مواضعها من صدورهم ، فلا هى ترجع ولا هى تخرج من أبدانهم فيموتوا .

ثم بين أنه لاينفع الكافرين فى ذلك اليوم أحد فقال :

(ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) أى ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك

بالله قريب ينفعهم ، ولا شفيع تقبل شفاعته لهم ، بل تقطعت بهم الأسباب من كل خير .

ثم وصف سبحانه شمول علمه بكل شىء و إن كان فى غاية الخفاء فقال :

(يعلم خائنة الأعين) أى يعلم ربكم ما خانت أعين عباده وما نظرت به إلى مالا يحل كما يفعل أهل الريب ، قال ابن عباس فى الآية : هى الرجل يكون فى القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها ، و إذا غضوا نظر إليها ، و إذا نظروا غض بصره عنها . وقد اطلع الله من قلبه أنه ودّ أن ينظر إلى عورتها ، أخرجه ابن أبى شيبة وابن المنذر .

(وما تخفى الصدور) أى لايخفى عليه شىء من أمورهم حتى ما يحدثون به أنفسهم وتضمره قلوبهم .

(والله يقضى بالحق) أى والله يحكم بالعدل فى الذى خانته الأعين بنظرها ، وأخفته الصدور من النوايا ، فيجزى الذى أغمضوا أبصارهم وصرفوها عن محارمه حذار الموقف بين يديه بالحسنى ، و يجزى الذين رددوا النظر ، وعزمت قلوبهم على مواقعة الفواحش جزاءهم الذى أوعدهم به فى دار الدنيا .

(والذين يدعون من دونه لايقضون بشىء) أى والأوثان والآلهة التى يعبدها هؤلاء المشركون من قومك — لايقضون بشىء لأنهم لايعلمون شيئا ولا يقدرون على شىء ، فاعبدوا الذى يقدر على كل شىء ، ولا يخفى عليه شىء .

وغير خاف ما فى هذا من التهكم بآلهتهم .

(إن الله هو السميع البصير) أى إنه تعالى هو السميع لما تنطق به الألسنة ، البصير بما تفعلون من الأفعال ، وهو محيط بكل ذلك ومحصيه عليكم ، فيجازيكم عليه جميعا يوم الجزاء .

ولا يخفى ما فى هذا من الوعيد لهم على ما يقولون و يفعلون ، والتعريض بحال ما يدعون من دون الله .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) .

المعنى الجملى

بعد أن بالغ سبحانه فى تخويف الكفار بعذاب الآخرة — أردفه بتخويفهم بعذاب الدنيا ، فطلب إليهم أن ينظروا إلى من قبلهم ممن كانوا أشد منهم قوة ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، إذ كذبوا رسلهم حين جاءوهم بالبينات .

الإيضاح

حذر الله هؤلاء المشركين مما حل بمن قبلهم من الأمم التى كانت أقوى منهم وأعظم آثاراً كعاد وثمود ، « والسعيد من وعظ بغيره » فقال واعظا ومذكراً : ألم يسر هؤلاء المشركون بالله فى البلاد فيروا عاقبة الذين كانوا من قبلهم من الأمم ممن سلكوا سبيلهم فى الكفر وتكذيب الرسل ، وقد كانوا أشد منهم بطشا ، وأبقى فى الأرض آثاراً ، فلم تنفعهم شدة قواهم ، ولا عظيم آثارهم إذ جاء أمر الله ، فأخذوا بما أجرموا من المعاصى واكتسبوا من الآثام ، فأبيدوا جميعا وصارت مساكنهم خاوية بما ظلموا ، وما كان لهم من عذاب الله من حافظ يدفعه عنهم ؟

قصص موسى عليه السلام مع فرعون

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا

قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) .

شرح المفردات

السلطان : الحجة والبرهان ، فرعون : ملك القبط بالديار المصرية ، وهامان وزيره ، وقارون كان أكثر الناس فى زمانه تجارة ومالا ، عذت : التجأت وتحصنت ، متكبر : أى مستكبر عن اتباع الحق .

المعنى الجملى

لما سلى رسوله بذكر عاقبة الكفار الذين كذبوا بالأنبياء قبله بمشاهدة آثارهم — سلاه أيضا بذكر قصص موسى مع فرعون مع ما أوتى من الحجج الباهرة ، كذبه فرعون وقومه وأمروا بقتل أبناء بنى إسرائيل ، وأمر فرعون بقتل موسى خوفا أن يبدل دينهم أو يعيث فى الأرض فساداً ، فتعوذ موسى بربه ورب بنى إسرائيل من كل جبار متكبر لا يؤمن بالجزاء والحساب .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب) يقول سبحانه مسليا نبيه عن تكذيب من كذبه من قومه ، ومبشراً له بأن العاقبة والنصر له فى الدنيا والآخرة كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام ،

فإن الله أرسله بالآيات البينات إلى فرعون وهامان وقارون فكذبوه وجعلوه ساحرا مجنونا حين عجزوا عن معارضته .

وخص فرعون وهامان وقارون بالذكر، لأنهم الرؤساء المكذبون والناس تبع لهم.

ولما عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة لجئوا إلى استعمال القوة كما هو دأب المحجوج المغلوب على أمره ، وإلى هذا أشار بقوله :

(فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) أى فلما جاءتهم الآيات البينات الدالة على توحيد الله ووجوب العمل بطاعته ، قالوا غيظا وحنقا وعجزاً عن المعارضة : اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه من أبناء بنى إسرائيل وأبقوا نساءهم لخدمتنا .

قال قتادة : هذا قتل غير القتل الأول ، لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى ، فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بنى إسرائيل عقوبة لهم فكان يأمر بقتل الذكور وترك الإناث ليمتنعوا من الإيمان ، ولئلا يكثر جمعهم ويشتد عضدهم بالذكور من أولادهم ، لكن الله شغلهم عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب كالضفادع والقمّل والدم والطوفان إلى أن خرج بنو إسرائيل من مصر .

وإلى هذا أشار سبحانه بقوله :

(وما كيد الكافرين إلا فى ضلال) أى وما مكرهم وقصدهم وهو تقليل عدد بنى إسرائيل لئلا ينصروا عليهم — إلا ذاهب سدى وباطلا ، فالناس لا يمتنعون من الإيمان وإن فُعل بهم مافُعل ، وإن القدر المقدور لامحالة نافذ والقضاء المحتوم لابدّ واقع ، والنصر حليف المؤمنين ، كما وعد فى كتابه المكنون « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » .

والخلاصة — إن ما أظهروه من الإبراق والإرعاد سيضمحل لامحالة ويذهب هباء أمام تلك القوة القاهرة وسيكون النصر للمتقين .

ثم ما كفاهم قتل البنين واستحياء البنات من بنى إسرائيل بل أرادوا أن يجتثوا هذه الشجرة من أصلها كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله :

(وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه) أى وقال فرعون لملئه : دعونى أقتل موسى وليدع ربه الذى أرسله إلينا ليمنعه منا ، وكان إذا همّ بقتله كفوه وقالوا له : ليس هذا بالذى يخاف منه وهو أضعف من ذلك شأنا ، وما هو إلا ساحر يصاوله ساحر مثله ، وإنك إن قتلته أدخلت الشبهة فى نفوس القوم واعتقدوا أنك عجزت عن مقابلة الحجة بالحجة ، وما زالون به هكذا يحاورونه ويداورونه حتى يكف عن قتله .

وربما يكون قد قال ذلك تمويها على قومه وإيهاما أن حاشيته هم الذين يكفونه عن قتله ، وما يكفه عن ذلك إلا مافى نفسه من هول الفزع الذى استحوذ عليه ، كما يرشد إلى ذلك قوله « وَلْيَدْعُ رَبَّهُ » فإن ظاهره الاستهانة به بدعائه ربه سبحانه ؛ كما يقال : ادع ناصرك فإنى منتقم منك ، وباطنه أن فرائصه كانت ترتعد من دعائه ربه ، فلهذا تكلم بما تكلم به مظهرا أنه لا يبالى بدعائه ربه ، كما يقول القائل ذرونى أفعل كذا وما كان فليكن .

ثم ذكر السبب فى قتله فقال :

(إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) أى إنى أخاف أن يفسد موسى عليكم أمر دينكم الذى أنتم عليه من عبادة غير الله ويدخلكم فى دينه الذى هو عبادة الله وحده ، أو يوقع بين الناس الخلاف والفتنة ، إذ يجتمع إليه الهَمَل الشُرّد ويكثرون من الخصومات والمنازعات وإثارة القلاقل والاضطرابات ، فتتعطل المزارع والمتاجر وتعدم المكاسب .

والخلاصة — إنه يقول : إنى أخاف أن يفسد عليكم أمر دينكم بالتبديل ، أو يفسد عليكم أمر دنياكم بالتعطيل ، وهما أمران أحلاهما مُرّ .

وقد جعل ظهور مادعا إليه موسى وانتشاره فى الأرض واهتداء الناس به فساداً ، وليس الفساد إلا ماهو عليه هو ومن تابعه .

ولما هدد فرعون موسى بالقتل استعاذ بالله من كل متعظم عن الإيمان به لايؤمن بالبعث والنشور ، فصانه من كل بلية ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب) أى إنى استجرت بالله ربى وربكم واستعنت به من شر كل مستكبر لايذعن للحق، ولا يؤمن بيوم يحاسب الله فيه الخلائق ، فيجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بما أساء ، وإنما خص الاستعاذة بمن جمع بين الاستكبار والتكذيب بالجزاء ، لأنهما عنوان قلة المبالاة بالعواقب ، وعنوان الجرأة على الله وعلى عباده ، فمن لم يؤمن بيوم الحساب لم يكن للثواب على الإحسان راجيا ، ولا من العقاب على الإساءة وقبيح ما يأتى من الأفعال خائفا .

وفى قوله (ربى وربكم) حثّ لهم على موافقته فى العياذ به سبحانه ، والتوجه إليه جل شأنه بالأرواح ، فالأرواح الطاهرة إذا تظاهرت كان ذلك أدنى إلى الإجابة ، وأقرب إلى تحقق الغرض ، ومن ثم شرعت صلاة الجماعة ، وإنما قال (من كل متكبر) ولم يقل « منه » سلوكا لطريق التعريض ، وتحاشيا مما قد يعرض له من الأذى إذا هو سمع كلامه فهو واف بالغرض ومبين للعلة التى لأجلها أبى واستكبر .

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ؟ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ

ظَاهِرِينَ فِى الْأَرْضِ ، فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا ؟ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) .

شرح المفردات

الرجل المؤمن : هو ابن عم فرعون وولىّ عهده وصاحب شرطته وهو الذى نجا مع موسى وهو المراد بقوله : « وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى » ، والبينات : هى الشواهد الدالة على صدقه ، والمسرف : المقيم على المعاصى المستكثر منها ، والكذاب المفترى ، ظاهرين : أى غالبين عالين على بنى إسرائيل ، ما أريكم إلا ما أرى : أى ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب .

المعنى الجملى

بعد أن حكى عن موسى أنه مازاد حين سمع مقالة فرعون الداعية إلى قتله ، على أن استعاذ بالله من شره — أردف ذلك ببيان أن الله قيّض له من يدافع عنه من آل فرعون أنفسهم ويذبّ عنه على أكمل الوجوه وأحسنها ، ويبالغ فى تسكين تلك الفتنة ، ويجتهد فى إزالة ذلك الشر .

الإيضاح

(وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟) أى وقال رجل من آل فرعون يكتم إيمانه منهم خوفا على نفسه : أينبغى لكم أن تقتلوا رجلا ما زاد على أن قال : ربى الله وقد جاءكم بشواهد دالة على صدقه ، ومثل هذه المقالة لاتستدعى قتلا ولا تستحق عقوبة فاستمع فرعون لكلامه ، وأصغى لمقاله وتوقف عن قتله ، قال ابن عباس : لم يكن فى آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذى قال : « إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ » .

وخلاصة ذلك - أترتكبون هذه الفعلة الشنعاء ، وهى قتل النفس المحرمة من غير روية ولا تأمل ولا اطلاع على سبب يوجب قتله ؟ وما لكم علة فى ارتكابها إلا كلمة الحق ، وهى قوله : ربى الله .

أخرج البخارى وغيره من طريق عروة بن الزبير قال : قيل لعبد الله بن عمرو ابن العاص : أخبرنا بأشد شىء صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقا شديداً ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبيه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ؟ » .

وأخرج البزار وأبو نعيم فى فضائل الصحابة عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : « أيها الناس أخبرونى من أشجع الناس ؟ قالوا أنت ، قال أمَا إنى ما بارزت أحدا إلا انتصفت منه ، ولكن أخبرونى عن أشجع الناس ؟ قالوا لا نعلم ، فمن ؟ قال أبو بكر : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذته قريش فهذا يجؤه ، وهذا يتلتله ، وهم يقولون : أنت الذى جعلت الآلهة إلهاً واحداً ، قال : فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ، ويجأ هذا ويتلتل هذا ، وهو يقول : ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ ثم رفع بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : أنشدكم : أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ فسكت القوم ، فقال: ألا تجيبون ؟ فوالله لساعة من أبى بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون ، ذاك رجل يكتم إيمانه ، فأثنى الله عليه فى كتابه ، وهذا رجل أعلن إيمانه وبذل ماله ودمه » .

ثم ذكر من الحجج ما يؤيد به رأيه فقال :

(١) (وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) أى إن كان كاذبا فى قيله إن الله أرسله إليكم ليأمركم بعبادته وترك دينكم الذى أنتم عليه،

فإنما إثم كذبه عليه دونكم ، وإن يك صادقا فى قيله ذلك أصابكم الذى أوعدكم به من العقوبة على مُقامكم على الدين الذى أنتم عليه مقيمون ، فلا حاجة بكم إلى قتله فتسخطوا ربكم سخطين : سخطا على الكفر ، وسخطا على قتل رسوله .

وفى قوله : بعض الذى يعدكم ـ مبالغة فى التحذير ، فإنه إذا حذرهم من بعض العذاب أفاد أنه مهلك مخوف فما بال كله ؟ إلى ما فيه من الإنصاف وإظهار عدم التعصب .

(٢) (إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب) أى إنه لو كان مسرفا كذابا لما هداه الله ، ولما عاضده بتلك المعجزات ، إلى أنه لو كان كذلك لخذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله .

وفى هذا تعريض بفرعون بأنه مسرف فى القتل والفساد ، كذاب فى ادعاء الربوبية ، لا يهديه الله إلى سبيل الرشاد ، ولا يلهمه طريق الخير والفلاح .

(٣) (ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا؟) أى يا قوم قد علوتم الناس وقهرتموهم ، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ، ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه بقتله ، فإنه لا قِبَل لكم به ، وإن جاءنا لم يمنعه عنا أحد .

وفى قوله : ينصرنا وجاءنا ، تطييب لقلوبهم ، وإيذان بأنه ناصح لهم ، ساعٍ فى تحصيل ما يجديهم ، ودفع ما يرديهم ، سعيه فى حق نفسه ، ليتأثروا بنصحه .

ولما سمع فرعون ما قاله هذا الرجل من النصح جاء بمراوغة يوهم بها قومه أنه لهم من النصيحة والرعاية بمكان مكين ، وأنه لا يسلك بهم إلا مسلكا يكون فيه جلب النفع لهم ودفع الضر عنهم كما حكى سبحانه عنه بقوله :

(قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) أى قال فرعون مجيبا هذا المؤمن الناهى عن قتل موسى : لا أشير عليكم برأى سوى ما ذكرته من وجوب قتله حسما للفتنة ، وإنى لأرى أن هذا هو سبيل الرشاد والصلاح ، ولا أعدّ غير هذا صوابا .

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ؛ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥) .

شرح المفردات

الأحزاب : أى الأقوام الذين تحزبوا على أنبيائهم وكذبوهم ، والدأب : العادة ، يوم التناد : يوم القيامة ، سمى بذلك لأن الناس ينادى فيه بعضهم بعضا للاستغاثة .
قال أمية بن أبى الصّلت :

وبثّ الخلق فيها إذ دحاها فهم سكانها حتى التّناد

عاصم : أى مانع ، مرتاب : أى شاك فى دينه ، ويوسف : هو يوسف بن يعقوب عليه السلام ، وروى عن ابن عباس أنه يوسف بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب ، أقام فيهم نبيا عشرين سنة ، والسلطان : الحجة ، والمقت : أشد الغضب .

المعنى الجملى

بعد أن سمع ذلك المؤمن رأىَ فرعون فى موسى وتصميمه على قتله ، وإقامة البراهين على صحة رأيه ، وأنه لاسبيل إلى العدول عن ذلك — أعاد النصح مرة أخرى لقومه ، لعلهم يرعوون عن غيهم ويثوبون إلى رشدهم ، فذكرهم بأس الله وسنته فى المكذبين للرسل ، وضرب لهم الأمثال بما حل بالأحزاب من قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود ، ثم ذكرهم بأهوال يوم القيامة ، يوم لاعاصم من عذاب الله ، ثم أعقب ذلك بتذكيرهم بما فعل آباؤهم الأولون مع يوسف من قبل من تكذيبهم برسالته ورسالة مَن بعده ، فأحل الله بهم من البأس ما صاروا به مثلا فى الآخرين ، وكأن لسان حاله يقول : هأنذا قد أسمعت ، ونصحت فما قصرت ، والأمر لكم فيما تفعلون .

الإيضاح

(وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم) أى قال ناصحا قومه : يا قوم إنى أخاف عليكم إن كذبتم موسى وتعرضتم له بسوء أن يحل بكم مثل ما حل بالذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية وكذبوهم كقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم ، فقد نزل بهم من بأس الله وعذابه ما لم يجدوا له واقياً ولا عاصما ، وهذه سنة الله فى المكذبين جميعا ، فحذارِ حذارِ أيها القوم وإنى لكم ناصح أمين ، وما أهلكهم إلا بسوء أفعالهم وعظيم ما اجترحوا من الآثام والمعاصى وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . وإلى هذا أشار بقوله :

(وما الله يريد ظلما للعباد) أى وما أهلك الله هذه الأمم ظلما لهم بغير جرم اجترموه ، بل أهلكهم بإجرامهم وكفرهم ، وتكذيبهم رسله ، بعد أن جاءوهم بالبينات ، فأنفذ فيهم قدره ، وأحل بهم وعيده .

وبعد أن خوفهم العذاب الدنيوى خوفهم العذاب الأخروي فقال :

(وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد. يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم) أى إنى أخاف عليكم عذاب يوم القيامة حين ينادى بعضكم بعضا ، ليستغيث به من شدة الهول ، أو حين ينادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ، وينادى « أصحابُ الجنة أصحاب النار أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا نَعَمْ » وينادى « أصحابُ النار أصحاب الجنة أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ » .

يوم تولون مدبرين هربا من زفير النار وشهيقها ، فلا يجديكم ذلك شيئا ، ولا تجدون من يعصمكم من العذاب ، فتردّون إليه وينالكم منه ما قدّر لكم وكتب عليكم .

ثم نبه إلى شدة ضلالتهم وعظيم جهالتهم فقال :

(ومن يضلل الله فما له من هاد) أى ومن يخذله الله ولا يلهمه رشده فما له هاد يهديه إلى طريق النجاة ويوفقه إلى الخلاص .

وفى هذا إيماء إلى أنه يئس من قبولهم نصحه .

ثم وبخهم بأنهم ورثوا التكذيب بالرسل من آبائهم الأولين ، وأسلافهم الغابرين فقال :

(ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) أى ولقد جاء آباءكم يوسفُ من قبل موسى بالآيات الواضحات ، والمعجزات الباهرات ، فلم يزالوا فى ريب من أمره ، وشك من صدقه ، فلم يؤمنوا به ، حتى إذا مات قالوا : لن يبعث الله رسولا من بعده يدعو إليه ويحذر بأسه ، ويخوف من عقابه ؛ فالتكذيب متوارث ، والعناد قديم ، والريب

دأب آبائكم الغابرين ، وقد نسب تكذيب الآباء إليهم ، لما تقدم من أن الأمم متكافلة فيما بينها ، فينسب ما حدث من بعضها إلى جميعها ، إذا تواطئوا واتفقوا عليه كما جاء فى قصص ثمود حين كذب قُدار فعقر الناقة فنسب الكذب إلى ثمود جميعها كما قال : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا . إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا . فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا. فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا . وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا » .

والخلاصة — إنهم كفروا بيوسف فى حياته ، وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته ، وظنوا أن ذلك لايجدد عليهم الحجة .

وقد قالوا هذه المقالة على سبيل التشهى والتمنى من غير حجة ولا برهان ، ليكون لهم أساس فى تكذيب من بعده ، وليس إقراراً منهم برسالته ، بل هو ضم إلى الشك فى رسالته التكذيب برسالة من بعده .

ثم بين أنه لاعجب فى تكذيبهم فقد طمس الله بصائرهم ، وران على قلوبهم ، حين دسّوا أنفسهم بقبيح الخصال وعظيم الآثام .

(كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب) أى مثل هذا الضلال الواضح ، يضل الله ويصد عن سبيل الحق ، وقصد السبيل من هو مسرف فى معاصيه مستكثر منها ، شاك فى وحدانيته ووعده ووعيده ، لغلبة الوهم عليه ، وانهماكه فى التقليد .

ثم بين هؤلاء المسرفين المرتابين فقال :

(الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم) أى إن المسرفين المرتابين هم الذين يخاصمون فى حجج الله التى أتتهم بها رسله ليدحضوها بالباطل من الحجج التى لامستساغ لها من عقل ولا نقل، فيتمسكون بتقليد الآباء والأجداد ، ويتمسكون بترّهات الأباطيل التى لايتقبلها ذوو الحصافة والرأى .

ثم أكد ما سلف وقرره وتعجب من حالهم فقال :

(كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا) أى كبر ذلك الجدل بغضا لدى الله والمؤمنين ، فمقت الله إياهم يكون بما يستتبعه من سوء العذاب ، ومقت المؤمنين تظهر آثاره فى هجرهم إياهم ، والاحتراس من التعامل معهم ، وعدم الركون إليهم فى الدين والدنيا .

ثم بين أن هذه سنة الله فيهم وفى أمثالهم فقال :

(كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) أى كما طبع الله على قلوب المسرفين الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم، يطبع على قلوب جميع المتكبرين الجبارين الذين أبوا أن يوحدوا الله ويصدقوا رسله ، واستعظموا عن اتباع الحق ، فيصدر عنهم أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياب والجدل بغير الحق .

ونسب التكبر إلى القلب ، لأنه هو الذى يتكبر وسائر الأعضاء تبع له ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

قال قتادة : آية الجبابرة القتل بغير حق .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِى صَرْحًا لَعَلِّى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ، وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ (٣٧) .

شرح المفردات

هامان : وزير فرعون ، الصرح : القصر الشامخ المنيف ، الأسباب : واحدها سبب ، وهو ما يتصل به إلى شىء من حبل وسلم وطريق ، والمراد هنا الأبواب .

قال زهير بن أبى سُلْمى :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

والتباب : الخسران والهلاك ، ومنه قوله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » وقوله سبحانه : « وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ » .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف تكبر فرعون وجبروته — أبان هنا أنه بلغ من عتوّه وتمرده وافترائه فى تكذيب موسى أن أمر وزيره هامان أن يبنى له قصرا شامخا من الآجرّ ليصعد به إلى السماء ، ليطلع إلى إله موسى ، ومقصده من ذلك الاستهزاء به ونفى رسالته ، وأكد ذلك بالتصريح بقوله : « وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا » ثم أرشد إلى أن هذا وأمثاله صنيع المكذبين الضالين ، وأن عاقبة تكذيبهم الهلاك والخسران .

الإيضاح

(وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى) أى وقال فرعون بعد سماعه عظة المؤمن وتحذيره له من بأس الله إذا كذب بموسى وقتله : يا هامان ابن لى قصرا منيفا عالى الذرا رفيع العماد ، علّنى أبلغ أبواب السماء وطرقها ، حتى إذا وصلت إليها رأيت إله موسى ، ولا يريد بذلك إلا الاستهزاء والتهكم ، وتكذيب دعوى الرسالة من رب السموات والأرض .

والخلاصة — إن هذا نفى لرسالته من عند ربه .

ثم أكد هذا النفى الضمنى بالتصريح به بقوله :

(وإنى لأظنه كاذبا) أى وإنى لأظنه كاذبا فيما يقول ويدعى من أن له فى السماء ربًّا أرسله إلينا ، وقد قال هذا تمويها وتلبيسا على قومه ، توصلا بذلك

إلى بقائهم على الكفر ، وإلا فهو يعلم أن الإله ليس فى جهة العلو فحسب ، وكأنه يقول : لو كان إله موسى موجودا لكان له محل ، ومحله إما الأرض وإما السماء ، ولم نره فى الأرض ، فإذا هو فى السماء ، والسماء لايتوصل إليها إلا بسلم ، فيجب أن تبنى الصرح لنصل إليه .

ثم بين السبب الذى دعاه إلى ما صنع فقال :

(وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل) أى وهكذا زين الشيطان لفرعون هذا العمل السيء ، فانهمك فى غيّه ، واستمر فى طغيانه ، ولم يرعو بحال ، وصدّ عن سبيل الرشاد بأمثال هذه التمويهات والشبهات ، وما كان ذلك إلا لسوء استعداده وتدسيته نفسه والسير بها قُدُما فى شهواتها دون أن يكون لها وازع يصدها عن غيها ، ويثوب بها إلى رشدها .

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

ثم ذكر عاقبة مكره وتدليسه وأنه ذاهب سدى وأن الله ناصر أوليائه ، ومهلك أعدائه و« مُتَبَّرٌ مَاهُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وإلى هذا أشار بقوله :

(وما كيد فرعون إلا فى تباب) أى وما احتياله الذى يحتال به ليطلع على إله موسى إلا فى خسار وذهاب مال ، لأنها نفقة تذهب باطلا سدى دون أن يصل إلى شيء مما أراده من القضاء على دعوة موسى ، فالنصر فى العاقبة له «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» .

وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِىَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠)

وَيَاقَوْمِ مَالِى أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِى إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَالَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّ مَا تَدْعُونَنِى إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدُّنْيَا وَلَا فِى الْآخِرَةِ ، وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦) .

شرح المفردات

الرشاد : ضد الغى والضلال ، متاع : أى يستمتع به أياماً قليلة ثم ينقطع ويزول ، دار القرار : أى دار البقاء والدوام ، إلى النجاة : أى إلى الإيمان بالله الذى ثمرته وعاقبته النجاة ، إلى النار : أى إلى اتخاذ الأنداد والأوثان الذى عاقبته النار ، ما ليس لى به علم : أى ما لا وجود له ولم يقم عليه دليل ولا برهان ، لاجرم : أى حقًّا ، دعوة : أى استجابة دعوة لمن يدعو إليه ، مردّنا : أى مرجعنا ، وأن المسرفين : أى الذين يغلب شرهم على خيرهم ، فستذكرون : أى فسيذكر بعضكم بعضا حين معاينة العذاب ، وقاه : حفظه ، يعرضون عليها : أى تعرض أرواحهم عليها .

المعنى الجملى

اعلم أن هذا المؤمن لما رأى تمادى قومه فى تمردهم وطغيانهم أعاد عليهم النصح مرة أخرى ، فدعاهم أوّلا إلى قبول هذا الدين الذى هو سبيل الخير والرشاد ، ثم بين

لهم حقارة الدنيا وعظم شأن الآخرة ، وأنها هى الدار التى لا زوال لها ، ثم ذكر أنه يدعوهم إلى الإيمان بالله الذى يوجب النجاة والدخول فى الجنات ، وهم يدعونه إلى الكفر الذى يوجب الدخول فى النار ؛ ثم أردف هذا ببيان أن الأصنام لاتستجاب لها دعوة ، فلا فائدة فى عبادتها ، ومردّ الناس جميعا إلى الله العليم بكل الأشياء ، وهو الذى يجازى كل نفس بما كسبت ، وأن المسرفين فى المعاصى هم أصحاب النار ؛ ثم ختم نصحه بتحذيرهم من بأس الله وتفويض أمره إلى الله الذى يدفع عنه كل سوء يراد به ؛ ثم أخبر سبحانه بأنه استجاب دعاءه فوقاه السوء الذى دبروه له وحفظه مما أرادوه من اغتياله ، وأحاط بآل فرعون سوء العذاب فغرقوا فى البحر ، ويوم القيامة يكون لهم أشد العذاب فى النار .

الإيضاح

(وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد) أى يا قوم إن اتبعتمونى فقبلتم منى ما أقول لكم سلكتم الطريق الذى به ترشدون باتباعكم دين الله الذى ابتعث به موسى

ثم زهدهم فى الدنيا التى قد آثروها على الآخرة ، فصدوا عن التصديق برسول الله فقال :

(ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار) أى ياقوم ماهذا النعيم الذى عُجّل لكم فى هذه الحياة الدنيا إلا قليل المدى تستمتعون به إلى أجل أنتم بالغوه ثم تموتون ، وإن الآخرة هى دار الاستقرار التى لا زوال لها ، ولا انتقال منها ، ولا ظعن عنها إلى غيرها ، وفيها إما نعيم مقيم ، وإما عذاب أليم .

ثم بين كيف تحصل المجازاة فى الآخرة وأشار إلى أن جانب الرحمة فيها غالبة على جانب العقاب فقال :

(من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) أى من عمل فى دار الدنيا معصية

من المعاصى كائنة ما كانت ، فلا يعذب إلا بقدرها من غير مضاعفة للعقاب ، ومن عمل بطاعة الله وائتمر بأمره ، وانتهى عما نهى عنه ، ذكرا كان أو أنثى وهو مؤمن بربه مصدق بأنبيائه ورسله ، فأولئك يدخلون الجنة ويتمتعون بنعيمها بلا تقدير ولا موازنة للعمل بل يجازون أضعافا مضاعفة بلا انقضاء ولا نفاد .

ثم كرر ذلك المؤمن دعاءهم إلى الله وصرح بإيمانه ولم يسلك المسالك المتقدمة من إيهامه لهم أنه منهم وأنه إنما تصدى لتذكيرهم كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى كما يقول الرجل المحب لقومه تحذيرا لهم من الوقوع فيما يخاف عليهم من مواضع الهُلْكَة فقال :

(ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ؟) أى أخبرونى كيف أنتم وما حالكم ، أدعوكم إلى النجاة من عذاب الله بإيمانكم بالله وإجابة رسوله وتصديق ما جاء به من عند ربه ، وتدعوننى إلى عمل أهل النار بما تريدون منى من الشرك؟.

ثم فسر الدعوتين بقوله :

(تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار) أى تدعوننى إلى الكفر بالله والإشراك به فى عبادته ما لم يقم دليل على ألوهيته ، وأنا أدعوكم إلى من استجمع صفات الألوهية من كمال القدرة والغلبة والعلم والإرادة والتمكن من المجازاة والقدرة على التعذيب والغفران .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(لاجرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة) أى حقا أن ما تدعوننى إليه من الأصنام لايجيب دعوة من يدعوه ، فهو لاينفع ولا يضر فى الدنيا ولا فى الآخرة .

ونحو الآية : «إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ» وقوله : « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ

اللهِ مَنْ لاَيَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » .

(وأن مردّنا إلى الله) أى وأن منقلبنا بعد الموت والبعث إلى الله ، وحينئذ يجازى كل نفس بما كسبت من خير أو شر .

(وأن المسرفين هم أصحاب النار) أى وأن المشركين بالله المتعدّين حدوده هم أهل الجحيم خالدين فيها أبدا قاله قتادة وابن سيرين ، وقال ابن مسعود ومجاهد والشعبى : هم السفهاء السفاكون للدماء بغير حقها الذين ركبوا أهواءهم ودسّوا أنفسهم بصنوف المعاصى .

ثم ختم نصحه بكلمة فيها تحذير ووعيد لهم ، ليتفكروا فى عاقبة أمرهم لعلهم يرعوون عن غيهم فقال :

(فستذكرون ما أقول لكم) أى فستعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه وتتذكرونه فتندمون حيث لاينفع الندم ، وإنى قد بالغت فى نصحكم وتذكيركم بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد .

ثم ابتدأ كلاما آخر يبين به اطمئنانه إلى ما يجرى به القدر ويخبئه له الغيب كما هو دأب المؤمنين الصادقين فقال :

(وأفوّض أمرى إلى الله) أى وأتوكل على ربى وأفوض إليه أمرى وأستعين به ليعصمنى من كل سوء . قيل إنه قال ذلك لما أرادوا قتله والإيقاع به . وقال مقاتل : هرب هذا المؤمن إلى الجبل فطلبوه فلم يقدروا عليه .

ثم ذكر ما هو كالعلة لذلك فقال :

(إن الله بصير بالعباد) أى إنه خبير بهم فيهدى من يستحق الهداية ، ويضل من يستحق الإضلال لسوء استعداده وتدسيته نفسه ، وله الحجة الدامغة ، والحكمة البالغة ، والقدرة النافذة .

ثم أخبر سبحانه أنه قد كانت النصرة له والهلاك لعدوه فقال :

(فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب) أى فحفظه الله

مما أرادوا به من المكر السيء فى الدنيا ، إذ نجاه مع موسى عليه السلام ، وفى الآخرة بإدخاله دار النعيم ، وأحاط بفرعون وقومه سوء العذاب فى الدنيا بالغرق فى اليمّ ، وفى الآخرة بدخول جهنم و بئس القرار .

وفى هذا إيماء إلى أنهم قصدوه بالسوء ، وقد روى عن ابن عباس أنه لما ظهر إيمانه قصد فرعون قتله فهرب ونجا .

ثم فصل ما أجمله من سوء العذاب بقوله :

(النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيا ، و يوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) أى تعرض أرواحهم من حين موتهم إلى قيام الساعة على النار بالغداة والعشى وينفّس عنهم فيما بين ذلك ، ويدوم هذا إلى يوم القيامة ، وحينئذ يقال لخزنة جهنم : أدخلوا آل فرعون النار .

قال بعض العلماء وهذه الآية دليل على عذاب القبر ، و يؤيده ما روى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، و إن كان من أهل النار فمن أهل النار ، و يقال هذا مقعدك حين يبعثك الله تعالى إليه يوم القيامة ، ثم قرأ : « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا » .

وروى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما أحسن محسن مسلم أو كافر إلا أثابه الله ، قلنا يا رسول الله ما إثابة الكافر ؟ قال : المال والولد والصحة وأشباه ذلك ، قلنا وما إثابته فى الآخرة ، قال : عذابا دون العذاب وقرأ : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » .

وقد أثبت علماء الأرواح حديثا، نعيم الروح وعذابها، وشبهوا ذلك بما يراه النائم حين نومه ، فقد نرى نائمين فى سرير واحد يقوم أحدهما مذعوراً كئيباً وجلا مما شاهد فى نومه ، بينما نرى الثانى مستبشراً فرحاً بما لاقى من المسرة والنعيم ،

فيروى أنه كان فى حديقة غناء وشاهد كذا وكذا مما فيها من بهجة وبهاء ، وجمال ورُواء .

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ؟ قَالُوا بَلَى ، قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠) .

شرح المفردات

المحاجة : المجادلة والخصام بين اثنين فأكثر ، الضعفاء . الأتباع والمرءوسون ، والمستكبرون : السادة أولو الرأى فيهم ، والتبع : واحدهم تابع كخدم وخادم ، مغنون : أى دافعون ، نصيبا : أى قسطا وجزءا ، حكم : قضى ، الخزنة : واحدهم خازن وهم القوّام بتعذيب أهل النار ، ضلال : أى فى ضياع وخسار .

الإيضاح

(وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا) أى واذكر أيها الرسول لقومك وقت حجاج أهل النار وتخاصمهم وهم فى النار ، فيقول الأتباع للقادة السادة : إنا أطعناكم فيما دعوتمونا إليه فى الدنيا من الكفر والضلال ، فتكبرتم على الناس بنا .

(فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار؟) أى فهل تقدرون أن تحتملوا عنا قسطا من العذاب فتخففوه عنا ، فقد كنا نسارع إلى محبتكم فى الدنيا ، ومن قِبَلكم جاءنا العذاب ، ولولا أنتم لكنا مؤمنين .

ومقصدهم من هذا المقال تخجيلهم و إيلام قلوبهم ، و إلا فهم يعلمون أنهم لاقدرة لهم على ذلك التخفيف .

فرد عليهم أولئك الرؤساء بما حكاه الله عنهم بقوله :

(قال الذين استكبروا إنّا كلٌّ فيها) أى وقال رؤساؤهم الذين أبوا الانقياد للأنبياء : إنا جميعا واقعون فى العذاب ، فلو قدرنا على إزالته عن أنفسنا لدفعناه عنكم .

وخلاصة مقالهم : إنا وأنتم فى العذاب سواء .

(إن الله قد حكم بين العباد) بفصل قضائه ، فلا يؤاخذ أحدا بذنب غيره ، وكل منا كافر ، وكل منا يستحق العقاب ولا يغنى أحد عن أحد شيئا .

ولما يئس الأتباع من المتبوعين رجعوا إلى خزنة جهنم يطلبون منهم الدعاء كما حكى الله عنهم بقوله :

(وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب) أى وقال أهل جهنم لخدمها وقُوّامها مستغيثين بهم من عظيم ما هم فيه من البلاء رجاء أن يجدوا لديهم فرجا من ذلك الكرب الذى هم فيه : ادعوا ربكم أن يخفف عنا مقدار يوم من العذاب .

فرد عليهم الخزنة موبخين لهم على سوء ما كانوا يصنعون مما استحقوا عليه شديد العذاب .

(قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟) أى أو ما جاءتكم الرسل بالحجج على توحيد الله لتؤمنوا به وتبرءوا مما دونه من الآلهة ؟

فأجابوهم :

(قالوا بلى) أى قالوا أتونا فكذبناهم ولم نؤمن بهم ولا بما جاءوا به من البينات الواضحة والبراهين الساطعة ، حينئذ قال لهم خزنة جهنم تهكما بهم :

(قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) أى قالوا لهم : إذا كان الأمر كما ذكرتم فادعوا أنتم وحدكم ، فإنا لاندعو لمن كفر بالله وكذب رسله ، وإن دعاءكم لايفيدكم شيئا فما هو إلا فى خسران وتبار ، وسواء دعوتم أو لم تدعوا فإنه لايستجاب لكم ولا يخفف عنكم .

روى الترمذى وغيره عن أبى الدرداء قال : « يُلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون منه فيغاثون بالضريع لايسمن ولا يغنى من جوع ، فيأكلون لايغنى عنهم شيئا ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غُصَّة فيغَصُّون به فيذكرون أنهم كانوا فى الدنيا يجيزون الغصص بالماء ، فيستغيثون بالشراب فيرفع لهم الحميم بالكلاليب ، فإذا دنا من وجوههم شواها ، فإذا وقع فى بطونهم قطَّع أمعاءهم وما فى بطونهم ، فيستغيثون بالملائكة يقولون : « ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ » فيجيبونهم : « أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِى ضَلَالٍ » .

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْبَابِ (٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِىِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ

اللّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ، فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦).

شرح المفردات

يوم يقوم الأشهاد : هو يوم القيامة ، والأشهاد : واحدهم شهيد بمعنى شاهد ، والهدى : ما يُهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع ، والإبكار : أول النهار إلى نصفه ، والعشى : من النصف إلى آخر النهار ، والسلطان : الحجة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى أول السورة أنه لايجادل فى آيات الله إلا القوم الكافرون ، ثم رد على أولئك المبطلين المجادلين تسلية لرسوله وتصبيراً له على تحمل أذى قومه — أردف ذلك بوعده له بالنصرة على أعدائه فى الدنيا والآخرة ، وتلك سنة الله ، فهو ينصر الأنبياء والرسل ويقيض لهم من ينصرهم على أعدائهم ؛ ويملأ قلوبهم بنور اليقين ، ويلهمهم أن النصرة لهم آخرا مهما تقلبت بهم الأمور .

الإيضاح

(إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) أى إنا لنجعل رسلنا هم الغالبين لأعدائهم القاهرين لهم، وننصر معهم من آمن بهم فى الحياة الدنيا إما بإعلائهم على من كذبوهم كما فعلنا بداود وسليمان ، فأعطيناهما من الملك والسلطان ما قهرا به كل كافر ، وكما فعلنا بمحمد صلى الله عليه وسلم بإظهاره على من كذبه من قومه — وإما بانتقامنا ممن حادّهم وشاقهم بإهلاكهم وإنجاء الرسل كما فعلنا بنوح وقومه من إغراقهم وإنجائه ، وكما فعلنا بموسى وفرعون وقومه ، إذ أهلكناهم غرقا ونجينا موسى ومن آمن معه من بنى إسرائيل — وإما بانتقامنا

منهم بعد وفاة رسلنا كما نصرنا شعيبا بعد مهلكه بتسليطنا على من قتله من سلّطنا حتى انتصرنا بهم ممن قتله .

وكذلك ننصرهم عليهم يوم القيامة يوم يقوم الأشهاد من الملائكة والأنبياء والمؤمنين على الأمم المكذبة لرسلها - بالشهادة بأن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم وأن الأمم قد كذبتهم .

(يوم لاينفع الظالمين معذرتهم) أى يوم لاينفع أهل الشرك اعتذارهم ، لأنهم لايعتذرون إلا بباطل كما حكى سبحانه عنهم من قولهم : « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » .

(ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) أى ولهم فى هذا اليوم الطرد من رحمة الله ، ولهم شرما فى الآخرة من العذاب الأليم والقرار فى سواء الجحيم .

ولما بين أنه ينصر الأنبياء والمرسلين فى الدنيا والآخرة ذكر نوعا من تلك النصرة فى الدنيا فقال :

(ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب . هدى وذكرى لأولى الألباب) أى ولقد أعطينا موسى من المعجزات والشرائع ما يهتدى به الناس فى الدنيا والآخرة ، وأنزلنا عليه التوراة هدى لقومه فتوارثوها خلفا عن سلف وصارت هداية لهم وتذكرة لأولى العقول السليمة التى بعدت من شوائب التقليد والوهم .

وبعد أن بين سبحانه أنه ينصر رسله والمؤمنين وضرب لذلك مثلا بحال موسى خاطب نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله :

(فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار) أى فاصبر أيها الرسول لأمر ربك ، وبلغ قومك ومن أمرت بإبلاغه ما أنزل إليك وأيقن بأن الله منجز وعده وناصرك وناصر من صدقك ، وآمن بك على من كذبك

وأنكر ما جئت به من عند ربك ، وسل ربك غفران ذنبك وعفوه عنه ، وصلّ شكراً له طرفى النهار كما جاء فى الآية الأخرى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ » .

وقد يكون المراد من ذلك المواظبة على ذكر الله وألا يَفْتُر اللسان عنه ، ولا يغفل القلب حتى يدخل فى زمرة الملائكة الذين قال سبحانه فى وصفهم : « يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ » .

ولما ابتدأ عزّ اسمه بالرد على الذين يجادلون فى آيات الله واتصل الكلام بعضه ببعض على النسق المتقدم ، نبه هنا إلى السبب الذى يحملهم على تلك المجادلة فقال :

(إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) أى إن الذين يخاصمونك أيها الرسول فيما أتيتهم به من عند ربك من الآيات بغير حجة — ما يحملهم على هذا الجدل إلا كبر فى صدورهم يمنعهم عن اتباعك وقبول الحق الذى جئتهم به ، إذ لو سلموا بنبوتك لزمهم أن يكونوا تحت لوائك وطوع أمرك ونهيك ، لأن النبوة ملك ورياسة ، وهم فى صدورهم كبر لا يرضون معه أن يكونوا فى خدمتك ، وما هم ببالغى موجب الكبر وهو دفع الرياسة والنبوة عنك ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وليس ذلك بالذى يدرك بالأمانى .

والخلاصة — إنه ما يحملهم على تكذيبك إلا ما فى صدورهم من الكبر والحسد لك ، وما هم ببالغى إرادتهم فيه ، فإن الله قد أذلهم .

ثم أمر رسوله أن يستعيذ من هؤلاء المجادلين المستكبرين ، فيقيه من أذاهم وشرهم ويكلؤه ويحفظه منهم فقال :

(فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير) أى فالتجئ إلى الله تعالى فى دفع كيد من يشنؤك ويبغى عليك ، فهو السميع لأقوالهم ، البصير بأفعالهم ، لا يخفى عليه شىء منها .

لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنهم يجادلون فى آيات الله بغير سلطان ، وكان من جدلهم أنهم ينكرون البعث ، ويعتقدون استحالته ويعملون أقيسة وهمية ، وقضايا جدلية كقولهم : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ » وقولهم : « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ » ذكر هنا برهانا يؤيد إمكان حدوثه ويبعد عن أذهانهم استحالته وهو خلقه للسموات والأرض ابتداء على عظم أجرامهما ، ومن قدر على ذلك فهو قادر على إعادتكم كما جاء فى الآية الأخرى « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » .

الإيضاح

(لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) أى لخلق السموات والأرض ابتداء من غير سبق مادة أعظم فى النفوس وأجلّ فى الصدور ، أكبر من خلق الناس لعظم أجرامهما ، واستقرارهما من غير عمد ، وجريان الأفلاك بالكواكب بلا سبب ، وقد جرت العادة فى مزاولة الأفعال أن علاج الشىء الكبير أشق من علاج الشىء الصغير ، فمن قدر على ذلك قدر على ما دونه كما قال : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى ولكن هؤلاء المشركين لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها ولا يعلمون أن الله لا يعجزه شىء .

وبعد أن ذكر سبحانه الجدل بالباطل ذكر مثلا للباطل والحق وأنهما لا يستويان فقال :

(وما يستوى الأعمى والبصير) أى وما يستوى الكافر الذى لا يتأمل حجج الله بعينيه فيتدبرها ويعتبر بها ، فيعلم وحدانيته وقدرته على خلق ما يشاء ويؤمن بذلك ويصدق به — والمؤمن الذى يرى بعينيه تلك الحجج فيتفكر فيها ويتعظ بها ويعلم ما تدل عليه من توحيده وعظيم سلطانه وقدرته على خلق الأشياء جميعها صغيرها وكبيرها ، وقد ضرب لهما مثل الأعمى والبصير ، ليستبين ذلك الفارق على أتم وجه وأعظم تفصيل ، فما الأمثال إلا وسائل للإيضاح تبين للناس المعقولات وهى لابسة ثوب المحسوسات ، فيتضح ما انبهم منها وخفى من أمرها كما قال : « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء) أى وكذلك لا يستوى المؤمنون المطيعون لربهم والعاصون المخالفون لأمره ، ونحو الآية قوله : « وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ . وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ » .

(قليلا ما تتذكرون) أى ما أقل ما تتذكرون حجج الله فتعتبرون بها وتتعظون ، ولو تذكرتم واعتبرتم لعرفتم خطأ ما أنتم عليه مقيمون من إنكاركم قدرة الله على إحياء من فنى من خلقه وإعادته لحياة أخرى هذه الحياة .

ولما قرر الدليل على إمكان وجود يوم القيامة والبعث والنشر — أردفه بالإخبار بأنه واقع لا محالة فقال :

(إن الساعة لآتية لا ريب فيها) أى إن يوم القيامة الذى يحيى فيه الله الموتى للثواب والعقاب لآت لاشك فيه ، فأيقنوا بمجيئه ، وأنكم مبعوثون من بعد مماتكم ،

ومجازون بأعمالكم ، فتوبوا إلى ربكم واشكروا له جزيل إنعامه عليكم ، ليدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، وفيها ترون ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

(ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أى ولكن أكثر الناس لا يصدقون بمجيئه ، ومن ثم ركبوا رءوسهم وعاثوا فى الأرض فساداً ، واجترحوا السيئات دون خوف الرقيب الحسيب .

وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَىُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) .

شرح المفردات

ادعونى : أى اعبدونى ، أستجب لكم : أى أثبكم على عبادتكم إياى ، داخرين : أى صاغرين أذلاء ، لتسكنوا فيه : أى لتستريحوا فيه ، مبصراً : أى يبصر فيه ،

تؤفكون : أى تصرفون ، قراراً : أى مستقرا ، بناء : أى قبة ومنه أبنية العرب لقبابهم التى تضرب للسكنى فيها ، فتبارك : أى تقدس وتنزه ، الدين : الطاعة .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت أن يوم القيامة حق ، وكان المرء لاينتفع فيه إلا بطاعة الله والتضرع له ، وأشرف أنواع الطاعات الدعاء أى العبادة ، لاجرم أمر الله تعالى بها فى هذه الآية .

ولما كانت العبادة لاتنفع إلا إذا أقيمت الأدلة على وجود المعبود ، ذكر من ذلك تعاقب الليل والنهار وخلق السموات والأرض وخلق الإنسان فى أحسن صورة ورزقه من الطيبات .

الإيضاح

(وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) أى اعبدونى أثبكم ، هكذا روى عن ابن عباس والضحاك ومجاهد فى جماعة آخرين ، ويؤيده أن القرآن كثيرا ما استعمل الدعاء بمعنى العبادة كقوله : « إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً » .

وعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدعاء الاستغفار» وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لم يدع الله يغضب عليه » . أخرجه أحمد والحاكم . وعن معاذ بن جبل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لاينفع حذر من قدر ، ولكن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل ، فعليكم بالدعاء » أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبرانى ، وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدعاء مخ العبادة » أخرجه الترمذى ، وعن ابن عباس قال : «أفضل العبادة الدعاء » وقرأ هذه الآية ، وأخرج البخارى فى الأدب عن عائشة قالت «سئل النبى صلى الله عليه وسلم أى العبادة أفضل ؟ فقال : دعاء المرء لنفسه » .

ثم صرح سبحانه بأن المراد من الدعاء العبادة فقال :

(إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) أى إن الذين يتعظمون عن إفرادى بالعبادة وإفرادى بالألوهة سيدخلون جهنم صاغرين أذلاء .

وفى هذا وعيد شديد لمن استكبر عن دعاء الله ، وفيه لطف بعباده عظيم ، وإحسان إليهم كبير ، من حيث توعد من ترك طلب الخير منه ، واستدفاع الشرّ به ، بهذا الوعيد البالغ ، وعاقبه بهذه العقوبة الشديدة ، فيا عباد الله وجهوا رغباتكم إليه ، وعوّلوا فى كل مطالبكم على من أمركم بتوجيهها إليه ، وأرشدكم إلى التوكل عليه ، وكفل لكم الإجابة بإعطاء مطالبكم ، وحصول رغباتكم ، فهو الكريم الجواد الذى يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، ويغضب على من لم يطلب من فضله العظيم ، وملكه الواسع ما يحتاج إليه من أمور الدين والدنيا .

وعن النعمان بن بشير قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدعاء هوالعبادة» ثم قرأ : « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى إلى قوله : دَاخِرِينَ» أخرجه الترمذى والبخارى فى الأدب والحاكم وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية .

ولما أمر بالدعاء، والاشتغالُ به لابد أن يسبق بمعرفة المدعوّ — ذكر الدليل عليه بذكر بعض نعمه فقال :

(١) (الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) أى إن الله الذى لاتصلح الألوهة إلا له ، ولا تنبغى العبادة لغيره — هو الذى جعل الليل للسكون والاستراحة من الحركة والتردد فى طلب المعاش والحصول على ما يفى بحاجات الحياة .

(٢) (والنهار مبصرا) أى وجعل النهار مضيئا بشمسه ذات البهجة والرواء ، لتتصرفوا فيه بالأسفار ، وجوْب الأقطار ، والتمكن من مزاولة الصناعات ، ومختلف التجارات .

ثم ذكر نتيجة لما تقدم فقال :

(إن الله لذو فضل على الناس) أى فهو المتفضل عليهم بالنعم التى لاتحصى ، ولا يمكن أن تستقصى .

ثم بين أن كثيرا من عباده جحدوا هذه النعم ، واستكبروا عبادة المنعم فقال :

(ولكن أكثر الناس لايشكرون) هذه النعم ولا يعترفون بها ، إما لجحودهم لغفلتهم وكفرهم بها كما هو شأن الكفار ، وإما عن النظر ، وإهمالهم لما يجب من شكر المنعم كما هو حال الجاهلين .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ » وقوله : « إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » .

ثم بين كمال قدرته المقتضية لوجوب توحيده فقال :

(ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ؟) أى ذلكم الذى فعل كل هذا ، وأنعم عليكم بهذه النعم هو الله الواحد الأحد خالق جميع الأشياء ، لا إله غيره ولا رب سواه ، فكيف تنقلبون عن عبادته ، وتنصرفون عن توحيده ، وتصرفون عن الإيمان ، مع قيام البرهان ، وتعبدون غيره من الأصنام التى لاتخلق شيئا وهى مخلوقة منحوتة .

ثم ذكر أن هؤلاء ليسوا ببدع فى الأمم قبلهم ، بل قد سبقهم فى هذا خلق كثير فقال :

(كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون) أى كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله — ضل وأفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان ، بل للجهل والهوى .

وبعد أن ذكر من الدلائل تعاقب الليل والنهار ذكر هنا الأرض والسماء فقال:

(الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء) أى الله الذى جعل لكم

الأرض مستقرا تعيشون عليها، وتتصرفون فيها، وتمشون فى مناكبها، وجعل لكم السماء سقفا محفوظا مزينا بنجوم ينشأ عنها الليل والنهار والظلام والضياء .

وبعد أن ذكر دلائل الآفاق والأكوان — ذكر دلائل الأنفس فقال :

(وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات) أى وخلقكم فأحسن خلقكم، إذ خلق كلا منكم منتصب القامة ، بادى البشرة ، متناسب الأعضاء ، مهيأ لمزاولة الصناعات ، واكتساب الكمالات ، ورزقكم من طيبات المطاعم والمشارب .

(ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين) أى ذلكم الذى أنعم عليكم بهذه النعم ، هو الذى لاتنبغى الألوهة إلا له ، ولا تصلح الربوبية لغيره ، لا من لاينفع ولا يضر ، فتقدس الله سبحانه وتنزه وهو ربّ العالمين .

ثم نبه إلى وحدانيته وأمر بإخلاص العبادة فقال :

(هو الحى لاإله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين) أى هو الحى الذى لايموت، وما سواه فمنقطع الحياة غير دائمها ، لامعبود بحق غيره تجوزعبادته وتصلح الألوهة له، فادعوه مخلصين له الطاعة ، مفردين له الألوهة ، ولا تشركوا فى عبادته شيئا سواه من وثن أو صنم ، ولا تجعلوا له ندّا ولا عِدْلا .

ثم أمر عباده أن يحمدوه على جزيل نعمه وجليل عظمته فقال :

(الحمد لله رب العالمين) أى احمدوه سبحانه فهو مالك جميع أصناف الخلق من ملَك وإنس وجن ، لا الآلهة التى تعبدونها ، ولا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا فضلا عن نفع غيرها وضره ، وعن ابن عباس أنه قال : « من قال لا إله إلا الله فليقل إثرها : الحمد لله رب العالمين » وذلك قوله : « فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَمَّا جَاءَنِىَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ

مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨) .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت سبحانه لنفسه صفات الجلال والكمال — أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأنه نهى عن عبادة غيره ، وأورد ذلك بألين قول وألطفه ، ليصرفهم عن عبادة الأوثان ، ثم بين أن سبب النهى هو البينات التى جاءته ، إذ قد ثبت بصريح العقل أن إله العالم الذى تجب عبادته هو الموصوف بصفات العظمة ، لا الأحجار المنصوبة ، والخشب المصوّرة ، و بعد أن نهى عن عبادة غيره أمر بعبادته تعالى ، وقد ذكر من الأدلة على وجوده خلق الأنفس على أحسن الصور ورزقها من الطيبات ، ثم تكوين الجسم من ابتداء كونه نطفة وجنينا إلى الشيخوخة ثم الموت .

الإيضاح

(قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى) أى قل أيها الرسول لمشركى قومك من قريش وغيرهم: إنى نهيت أن أعبد ما تدعون من دون الله من وثن أو صنم ، حين جاءتنى الأدلة من عند ربى وهى آيات الكتاب الذى أنزله علىّ وهى مؤيدة لأدلة العقل ومنبهة لها .

وجملة ذلك — إن الآيات التنزيلية مفسرات للآيات التى فى الأكوان والأنفس .

ولما بين أنه نُهى عن عبادة غيرالله — أردف ذلك بذكر أنه أمر بعبادته تعالى فقال:
(وأمرت أن أسلم لرب العالمين) أى وأمرت أن أنقاد له تعالى وأخلص له دينى.

ثم ذكر من الدلائل على وجوده تعالى تكوين الإنسان من ابتداء النطفة إلى وقت الشيخوخة فقال :

(هوالذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون) أى هو الذى خلقكم من التراب ، إذ كل إنسان مخلوق من المنى ، والمنى مخلوق من الدم ، والدم يتولد من الأغذية ، والأغذية تنتهى إلى النبات ، والنبات يتكون من التراب والماء — ثم ذلك التراب يصير نطفة ثم علقة إلى مراتب كثيرة حتى ينفصل الجنين من بطن الأم .

وقد رتب سبحانه عمر الإنسان ثلاث مراتب .

(١) الطفولة . (٢) بلوغ الأشد . (٣) الشيخوخة ، ومن الناس من يتوفى قبل المرتبة الأخيرة . وهو يفعل ذلك لتبلغوا الأجل المسمى وهو يوم القيامة ، ولتعقلوا ما فى التنقل فى هذه الأطوار المختلفة من فنون العبر والحكم . وكما استدل بهذه التغيرات على وجود الإله القادر — استدل على ذلك بانتقال الإنسان من الحياة إلى الموت ومن الموت إلى الحياة فقال :

(هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) أى قل لهم أيها الرسول : هو الذى يحيى من يشاء بعد مماته ، ويميت من يشاء من الأحياء وإذا أراد كون أمر من الأمور التى يريد تكوينها ، فإنما يقول له كن فيكون بلا معاناة ولا كُلْفة .

وهذا تمثيل لتأثير قدرته فى المقدورات حين تعلق إرادته بوجودها ، وتصوير لسرعة ترتب المكوّنات على تكوينه من غير أن يكون هنك آمر ومأمور .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ ؟ (٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) .

شرح المفردات

الكتاب : القرآن ، يسحبون : أى يجرّون ، الحميم : الماء الحار ، يسجرون : أى يحرقون ، يقال سجر التنور إذا ملأه بالوقود ، ومنه : «وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ» أى : المملوء ، ضلوا عنا : أى غابوا ، تفرحون : أى تبطرون ، تمرحون : تختالون أشراً وبطراً .

المعنى الجملى

عود على بدء بالتعجيب من أحوال المجادلين الشنيعة وآرائهم الفاسدة ، والتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بالقرآن وسائر الكتب والشرائع ، وترتيب الوعيد على ذلك .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ؟) أى انظر واعجب من هؤلاء المكابرين فى آياتنا الواضحة الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها ،

كيف يصرفون عنها مع تعاضد الدواعى على الإقبال عليها وانتفاء الصوارف عنها وقيام الأدلة على صحتها وأنها فى نفسها موجبة للتوحيد .

ثم بين صفات هؤلاء المبطلين بقوله :

(الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا) أى هم الذين كذبوا بالقرآن وبجميع ما أرسلنا به رسلنا من إخلاص العبادة له سبحانه والبراءة مما يعبد من دونه من الآلهة والأنداد والاعتراف بالبعث بعد الممات .

ثم هددهم وأوعدهم على ما يفعلون فقال :

(فسوف يعلمون. إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يسجرون) أى فسوف يعلم هؤلاء المكذبون حقيقة ما تخبرهم به وصدق ما هم به اليوم مكذبون من هذا الكتاب حين تجعل الأغلال والسلاسل فى أعناقهم ، يسحبون بها فى الحميم فينسلخ كل شىء عليهم من جلد ولحم وعروق، ثم تملأ بهم النار.

ونحو الآية قوله : « ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ » وقوله : « خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ »

ثم ذكر أنهم يسألون سؤال تبكيت وتوبيخ عن آلهتهم التى كانوا يعبدونها فقال:

(ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئا) أى ثم يسألون ويقال لهم : أين الأصنام التى كنتم تعبدونها من دون الله ليغيثوكم وينقذوكم مما أنتم فيه من البلاء والعذاب ؟ فيجيبون ويقولون غابوا عنا وأخذوا طريقا غير طريقنا وتركونا فى البلاء — لا ، بل الحق أننا ما كنا ندعو فى الدنيا شيئا يعتدّ به ؛ وهذا كما تقول حسبت أن فلانا شىء فإذا هو ليس بشىء ، إذا خبَرْته فلم تر عنده خيرا .

والخلاصة — إنهم اعترفوا بأن عبادتهم إياها كانت عبادة باطلة .

(كذلك يضل الله الكافرين) أى كما أضل الله تعالى هؤلاء وأبطل أعمالهم ، كذلك يفعل بأعمال جميع من يدين بالكفر فلا ينتفعون بشىء منها .

ثم بين السبب فيما يأتيهم من هذا العذاب فقال :

(ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) أى هذا الذى فعلنا بكم اليوم من شديد العذاب بسبب فرحكم الذى كنتم تفرحونه فى الدنيا بارتكاب الشرك والمعاصى ، ومرحكم وبطركم فيها بتمتعكم باللذات .

(ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) أى ادخلوا أبواب جهنم السبعة المقسومة لكم كما قال تعالى : « لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ » خالدين فيها أبدا ، فبئس منزل المتكبرين على الله فى الدنيا أن توحدوه ويؤمنوا برسله - جهنم .

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِىَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨) .

المعنى الجملى

كان الكلام من أول السورة إلى هنا فى تزييف طرق المجادلين فى آيات الله ، وهنا أمر رسوله بالصبر على أذاهم وتكذيبهم ، فإن الله سينجز له ما وعده من النصر والظفر على قومه ، ويجعل العاقبة له ولمن اتبعه من المؤمنين فى الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(فاصبر إن وعد الله حق) أى فاصبر أيها الرسول على ما يجادلك به هؤلاء المشركون فى آيات الله التى أنزلها عليك وعلى تكذيبهم إياك، فإن الله منجز لك فيهم ما وعدك من الظفر بهم والعلوّ عليهم وإحلال العقاب بهم، إما فى الدنيا وإما فى الآخرة كما قال:

(فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون) أى فإما نرينّك فى حياتك بعض الذى نعدهم من العذاب والنقمة كالقتل والأسر يوم بدر فذلك ما يستحقونه، أو نتوفينك قبل ذلك فإلينا يرجعون يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم وننتقم منهم أشد الانتقام ونأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

ونحو الآية قوله: «فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ».

ثم قال مسلّيا رسوله:

(ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) أى ولقد أرسلنا رسلا وأنبياء من قبلك إلى أممهم، منهم من أنبأناك بأخبارهم فى القرآن وبما لاقوه من قومهم وهم خمسة وعشرون، ومنهم من لم نقصص عليك فيه خبرهم ولا أوصلنا إليك علم ما كان بينهم وبين أقوامهم.

وعن أبى ذر قال: «قلت يارسول الله كم عِدّة الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جما غفيرا» رواه الإمام أحمد.

(وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) أى وليس فى الرسل أحد إلا آتاه الله آيات ومعجزات جادله قومه فيها وكذبوه، وجرى عليه من الإيذاء ما يقارب ما جرى عليك فصبر على ما أوذى، وكانوا يقترحون عليه المعجزات على سبيل

التعنت والعناد لا للحاجة إليها ، فكان من الحكمة عدم إجابتهم إلى ما طلبوا ، ولم يكن ذلك بقادح فى نبوّتهم ، فلا عجب فى اقتراح قومك عليك المعجزات التى لم يكن إظهارها صلاحا ، لاجرم إذ لم يجابوا إلى ما طلبوا ، لأن المصلحة فى عدم إجابتهم .

(فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون) أى فإذا جاء أمر الله وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين قضى بالعدل فنجى رسله والذين آمنوا معهم ، وأهلك الذين افتروا على الله الكذب وجادلوا فى آياته وزعموا أن له شركاء .

اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَىَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (٨١) .

المعنى الجملى

بعد أن أوعد المبطلين وبالغ فى ذلك بما فيه العبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد — عاد إلى ذكر الدلائل على وجوده ووحدانيته بذكر نعمة من نعمه التى لا تحصى .

الإيضاح

(الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ، ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون) المراد من الأنعام هنا: الإبل خاصة ، لأنها ذات المنافع التى ذكرت فى الآية ، وقد عد سبحانه لها الفوائد التالية :

(١) أكلها واستعمالها طعاما لهم ولضيفانهم وقد كانوا يتفاخرون بنحرها عند قدوم الطارق .

(٢) لها منافع أخرى كالأوبار والأصواف التى تتخذ منها بيوت الشَّعَر والملابس الصوفية وقد كانوا يستعملونها كثيراً ، والألبان التى تستعمل شربا ويستخرج منها الجبن ليكون إداما لهم فى طعامهم وسائر حاجتهم المعيشية والجلود التى تدبغ لتكون نعالا وفُرُشا على ضروب شتى .

(٣) استعمالها للنُّجْعَة وطلب مساقط الغيث لحاجتهم إلى الكلأ والقوت لهم ولماشيتهم والسفر من صقع إلى صقع ومن قطر إلى آخر ، وهى لما لها من خف مفرطح أنسب حيوان للسير فى رمال الصحراء ومن ثم قالوا «الجمل سفينة الصحراء» وقال شاعرهم يصف ذلك :

مافَرَّقَ الألاَّفَ بَعْـــدَ الله إلا الإبلُ
وما غرابُ البين إلّا ناقةٌ أو جملٌ

وقد كانت من أهم سبل المواصلات فى الأزمنة الغابرة فى البر كما كانت السفن كذلك فى البحر .

ونحو الآية قوله فى سورة النحل « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ » .

ثم ذكر أن هذه آيات من آيات الله الباهرة التى لامجال لإنكارها فقال :

(ويريكم آياته فأىّ آيات الله تنكرون) أى إنه تعالى له آيات يراها خلقه عيانا ويشاهدونها متجددة كل يوم وفى كل آن .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

فأيًّا منها تنكرون، وبأيها تعترفون وهى ظاهرة بادية للعيان لاسبيل إلى جحدها .

وقصارى ذلك — إنكم لاتقدرون على إنكار شىء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِى الْأَرْضِ ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ، سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) .

المعنى الجملى

ختم سبحانه هذه السورة بتهديد الذين يجادلون فى آياته طلبا للرياسة والجاه والحصول على المال وكسب حظوظ الدنيا ، وأبان أن هذه الدنيا فانية ذاهبة ، فما فيها من مال وجاه ظل زائل لايغنى عنهم من الله شيئا ، وقد ضرب لهم المثل بمن كانوا قبلهم ممن كانوا أكثر عددا وأشد قوة وآثاراً فى الأرض فلم ينفعهم شىء من ذلك حين حل بهم بأس الله ، ثم ذكر أن المكذبين حين رأوا البأس تركوا الشرك وآمنوا بالله وحده ، وأنَّى لهم ذلك ؟ ، وهيهات هيهات .

فذلك لايجديهم فتيلا ولا قطميرا ، سنة الله فى عباده ألا ينفع الإيمان حين حلول العذاب .

صاحِ هل ريْتَ أو سمعت براعٍ   ردَّ فى الضَّرْع ماقرَى فى الحِلاب

الإيضاح

(أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى أفلم يسر هؤلاء المجادلون فى آيات الله من مشركى قريش - فى البلاد ، فإنهم أهل سفر إلى الشام واليمن ، فينظروا فيما وطئوا من البلاد - إلى ما حل بالأمم قبلهم ، ويشاهدوا ماأحللنا بهم من بأسنا حين تكذيبهم رسلنا ، وجحودهم بآياتنا ، وكيف كانت عاقبة أمرهم ، وقد كانوا أكثر منهم عددا وأشد بطشا وأقوى جندا وأبقى فى الأرض أثرا ، لأنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا ويتخذون مصانع ويبنون أهراما ضخمة فلما جاءهم بأسنا ، وحلت بهم نقمتنا لم يغن ذلك عنهم شيئا ، ولا رد عنهم العذاب الذى حل بهم .

(فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى فلما جاء هذه الأمم المكذبة للرسل من أرسلوا إليهم بالأدلة الواضحة والبراهين الظاهرة ، فرحوا بما عندهم من شبهات ظنوها علما نافعا كقولهم : « وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ » وقولهم : « لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا » وقولهم : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ » ولكن حل بهم ما كانوا يستعجلون به رسلهم استهزاء وسخرية .

وقد سمى ماعندهم من العقائد الزائفة،وشبههم الداحضة علما تهكما واستهزاء بهم.

ثم ذكر حالهم حين عاينوا العذاب فقال :

(فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين) أى فلما عاينوا عذابنا النازل بهم قالوا آمنا بالله ، وكفرنا بتلك المعبودات الباطلة ، والآلهة الزائفة التى لاتجدى فتيلا ولا قطميرا .

ثم بين أن ذلك لايفيدهم شيئا فقد فات الأوان فلا يفيد الندم ولا الاعتراف بالحق شيئا .

ندم البُغاةُ ولاتَ ساعة مَنْدَم والبغىُ مرتَعُ مبتغيه وَخِيمٌ

فقال سبحانه :

(فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) أى فلم يفدهم إيمانهم عند معاينة عقابنا وحين ينزل بهم عذابنا ، بعد أن مضى فيهم حكمنا ، فمثل هذا الإيمان لايفيد شيئا كما قال تعالى لفرعون حين الغرق وحين « قال : آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ » — « الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ؟» .

وبعدئذ ذكر سبحانه أن هذه سنته فيهم وفى أمثالهم من المكذبين فقال :

(سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) أى وهكذا كانت سنة الله فى الذين سلفوا إذا عاينوا عذابه لم ينفعهم إيمانهم حينئذ ، بعد أن جحدوا بربهم وأنكروا وحدانيته وعبدوا مَن دونه من الأصنام والأوثان .

وقصارى ذلك — إن حكم الله فى جميع من تاب حين معاينة العذاب ألا تقبل منه توبة ، وقد جاء فى الحديث « إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر » أى فإذا غرغر وبلغت الروح الحلقوم فلا توبة ، ولهذا قال : « وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ » .

اللهم اقبل توبتنا ، واغفر حَوْبَتَنا ، وآمن روعتنا ، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله .

مجمل ماحوته السورة الكريمة

(١) وصف الكتاب الكريم .

(٢) الجدل بالباطل فى آيات الله .

(٣) وصف الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله .

(٤) طلب أهل النار الخروج منها لشدة الهول ثم رفض هذا الطلب .

(٥) إقامة الأدلة على وجود الإله القادر .

(٦) إنذار المشركين بأهوال يوم القيامة .

(٧) قصص موسى عليه السلام مع فرعون وما دار من الحوار بين فرعون وقومه والذى يكتم إيمانه .

(٨) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى قومه كما صبر أولو العزم من الرسل .

(٩) تعداد نعم الله على عباده فى البر والبحر .

سورة فصلت

هى مكية وآيها أربع وخمسون ، نزلت بعد غافر .

أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : « اجتمعت قريش يوما فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذى فرّق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا فليكلمه ولينظر بم يرد عليه ؟ فقالوا مانعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة فقالوا ائته يا أبا الوليد ، فأتاه فقال : يامحمد أنت خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبدالمطلب ؟، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال عتبة فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلمْ حتى نسمع قولك ، أما والله مارأينا سخلة قط أشأم على قومك منك ، فرّقت جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا فى العرب ، حتى لقد طار فيهم أن فى قريش ساحرا ، وأن فى قريش كاهنا ، والله مانتنظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف ، يارجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا

لك حتى تكون أغنى قريش رجلا ، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أى نساء قريش شئت فلنزوجك عشرا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فرغت ؟ قال : نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . حٰمٓ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » — حتى بلغ — « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » فقال عتبة : حسبك حسبك ، ماعندك غير هذا ؟ قال : لا ، فرجع إلى قريش فقالوا : ماوراءك ؟ قال ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته ، قالوا فهل أجابك ؟ قال والذى نصبها بنية (يريد الكعبة) ما فهمت شيئا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، قالوا ويلك يكلمك الرجل بالعربية وما تدرى ما قال ؟ قال لا والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة » .

وأخرج أبو نعيم والبيهقى فى الدلائل عن ابن عمر قال : « لما قرأ النبى صلى الله عليه وسلم على عتبة بن ربيعة حٰمٓ أتى أصحابه فقال ياقوم أطيعونى فى هذا اليوم واعصونى بعده ، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاما ماسمعت أذنى قط كلاما مثله وما دريت ما أرد عليه » . وفى هذا الباب روايات كثيرة تدل على اجتماع قريش وإرسالهم عتبة بن ربيعة وتلاوته صلى الله عليه وسلم أول هذه السورة عليه .

ومناسبتها ما قبلها :

(١) إنهما اشتركتا فى تهديد قريش وتقريعهم ، فقد توعدهم فى السورة السابقة بقوله : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ الخ » وهددهم هنا بقوله : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ » .

(٢) إن كلتيهما بدئ بوصف الكتاب الكريم .

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) .

شرح المفردات

لايسمعون : أى لايقبلون ولا يطيعون ، من قولهم : تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولى : أى لم يقبله ولم يعمل به فكأنه لم يسمعه ، والأكنة واحدها كنان كأغطية وغطاء: وهى خريطة السهام؛ والمراد أنها فى أغطية متكاثفة ، والوقر: الثقل فى السمع.

الإيضاح

(حم) تقدم الكلام فى هذا فى السورة قبلها .

(تنزيل من الرحمن الرحيم) أى هذا القرآن منزل من الله الرحمن الرحيم على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وخص هذين الوصفين (الرحمن الرحيم) بالذكر لأن الخلق فى هذا العالم كالمرضى المحتاجين إلى الدواء ، والقرآن مشتمل على كل مايحتاج إليه المرضى من الأدوية ، وعلى ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية ، فكان رحمة لهم ولطفا بهم كما قال : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » .

(كتاب فصلت آياته) أى هو كتاب بينت آياته، وميزت لفظا بفواصل ومقاطع،

ومبادئ للسور وخواتم لها ، وميزت معنى بكونها وعدا ووعيدا ، ومواعظ ونصائح ، وتهذيب أخلاق ورياضة نفس ، وقصص الأولين ، وتواريخ الماضين .
ونحو الآية قوله : « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » .

(قرآنا عربيا) أى أنزلناه بلغة العرب ، ليسهل عليهم فهمه كما قال : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » .

وفى هذا امتنان من الله عليهم ليسهل عليهم قراءته وفهمه .

(لقوم يعلمون) معانيه لكونه جاء بلسانهم ، فهم أهل اللسان فيفهمونه بلا واسطة ، وغيرهم لايفهمه إلا بوساطتهم .

(بشيراً ونذيراً) أى بشيراً لأوليائه بالجنة والنعيم المقيم إن داوموا العمل بما فيه من أوامر ونواه ، ونذيراً لأعدائه بالعذاب الأليم إن هم أصروا على التكذيب به والجدل فيه بالباطل وترك أوامره وفعل نواهيه .

ثم بين حال المشركين حين أنزل إليهم فقال :

(فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون) أى فاستكبر أكثر المشركين عن الإصغاء إليه ، ولم يقبلوه ولم يطيعوا ما فيه من أوامر ونواه ، إعراضا عن الحق .

ثم صرحوا بنفرتهم منه وتباعدهم عنه ، وذكروا لذلك ثلاثة أسباب تعللا واحتقاراً لدعوته :

(١) (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) أى إن قلوبنا فى أغطية متكاثفة مما تدعونا إليه من الإيمان بالله وحده وترك ما ألفينا عليه آباءنا ، فهى لاتفقه ما تقول من التوحيد ولا يصل إليها قولك .

(٢) (وفى آذاننا وقر) أى وفى آذاننا صمم يمنعها من استماع قولك .

(٣) (ومن بيننا و بينك حجاب) أى ومن بيننا و بينك ستر يمنعنا عن إجابتك. روى أن أبا جهل استغشى على رأسه ثوبا وقال : يا محمد بيننا و بينك حجاب ، استهزاء منه .

وقصارى ما يقولون : إن قلوبهم نابية عن إدراك ماجئت به من الحق وتقبله واعتقاده كأنها فى غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها ، وأسماعهم لايدخل إليها شىء منه كأن بها صمما ، والتباعد الدينين وتباعد الطريقين كان بينهم وبين رسول الله حجاب كثيف وحاجز منيع .

ثم بارزوه بالخلاف وشن الغارات الجدلية بما لم يبق بعده مجال للوفاق فقالوا :

(فاعمل إننا عاملون) أى فاعمل فى إبطال أمرنا جهد طاقتك ، ونحن نعمل جاهدين فى فض الناس من حولك وتشتيت شمل من آمن بك حتى تبطل دعوتك .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) .

شرح المفردات

فاستقيموا إليه : أى فأخلصوا له العبادة ، ويل : أى هلاك ، لايؤتون الزكاة: أى لايفعلون مايزكى أنفسهم من الإيمان والعمل الصالح ، ممنون : أى مقطوع من قولهم مننت الحبل إذا قطعته ، ومنه قول ذى الإصبع :

إنى لعمرك ما بابى بذى غلق على الصديق ولا خيرى بممنون

المعنى الجملى

بعد أن ذكر المشركون الأسباب التى تحول بينهم وبين قبول دعوته — أمر رسوله أن يجيب عن كلامهم بأنه لايقدر على جبرهم على الإيمان وحملهم عليه قسرا ،

فإنه بشر مثلهم ولا ميزة له عليهم إلا بأن الله أوحى إليه ولم يوح إليهم ، ثم ذكر أن خلاصة الوحى علم وعمل ، أما العلم فدعامته التوحيد ، وأما العمل فأسه الاستغفار والتوبة مما فرط من الذنوب ، ثم أردف ذلك بالتهديد لمن يشرك بالله ولا يزكى نفسه من دنس الشح والبخل ، وينكر البعث والجزاء والحساب يوم القيامة ، وينصرف إلى الدنيا ولذاتها ، وبعد أن ذكر وعيد الكفار أعقبه بوعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأن لهم عند ربهم أجرا دائما غير مقطوع ولا ممنوع .

الإيضاح

(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه) أى قل أيها الرسول لقومك : ما أنا إلا بشر مثلكم فى الجنس والصورة والهيئة ، ولستُ بملَك ولا جنّى لايمكنكم التلقى منى ، ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول ، بل أدعوكم إلى التوحيد الذى دلت عليه الدلائل الكونية وأيده النقل عن الأنبياء جميعا من آدم فمن بعده ، فأخلصوا له العبادة وسلوه العفو عن ذنوبكم التى سلفت منكم بالتوبة من شرككم — يتب عليكم ويغفر لكم .

(وويل للمشركين . الذين لايؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) أى وخسارة وهلاك لمن أشرك بربه ولم يواس البائس الفقير بشىء من ماله ، يدفع به عوزه ، ويزيل خصاصته ، وأنكر البعث والحساب والجزاء ، وكان يقال : الزكاة قنطرة الإسلام فمن قطعها نجا ، ومن تخلف عنها هلك .

وإنما جعل منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة ، لأن أحب شىء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه ، فإذا بذله فى سبيل الله فذاك أقوى دليل على استقامته وثباته وصدق نيته ، وصفاء طويته ؛ وما خُدِع المؤلَّفة قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا ، بها لانت شكيمتهم ، وزالت عصبيتهم ؛ وما ارتدت بنو حَنيفة بعد رسول الله إلا بمنعهم

للزكاة ، فعرّضوا أنفسهم للحرب ، والطعن والضرب ، إبقاء على أموالهم ولو ذهبت مهجهم وأرواحهم .

وقصارى ذلك — دمار وهلاك لمن أشرك بربه ، ولم يطهر نفسه من دنس الرذائل التى من أهمها البخل بالمال ودفع غائلة الجوع عن المسكين والفقير ، وأنكر البعث والجزاء .

ونحو الآية قوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » وقوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » .

وبعد أن ذكر وعيد المشركين أردفه بوعد المؤمنين فقال :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أى إن الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمر به ، وانتهوا عما نهى عنه — لهم عند ربهم جزاء غير مقطوع ولا ممنوع .

قال السّدّى : نزلت هذه الآية فى المرضى والزّمْنَى والهرْمى إذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الأجر مثل ما كانوا يعملون فى الصحة .

ونحو الآية قوله : « مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا » وقوله : « عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » .

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ؟ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِى كُلِّ

سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) .

شرح المفردات

فى يومين : أى فى نوبتين ، والرواسى : الجبال الثوابت ، أقواتها : أى أقوات أهلها ، سواء : أى كاملة لانقصان فيها ولا زيادة ، للسائلين : أى لطالبى الأقوات المحتاجين إليها ، استوى : أى عمد وقصد نحوها قصدا سويا من قولهم استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجها لايلتفت معه إلى عمل آخر ، دخان : أى مادة غازية أشبه بالدخان ، فقضاهن : أى فرغ من تسويتهن، أمرها : أى شأنها وما هى مستعدة له واقتضت الحكمة أن يكون فيها ، بمصابيح : أى بكواكب ونجوم ، وحفظا : أى وحفظناها حفظا من الآفات .

المعنى الجملى

بعد أن أمر رسوله بأن يقول للمشركين : إن ما تلقيته بالوحى أن إلهكم إله واحد ، فأخلصوا له العبادة — أردف هذا بما يدل على كمال قدرته وحكمته فى خلق السموات والأرض على أطوار مختلفة متعاقبة وأكمل لكل منها ما هى مستعدة له ، وزين السماء بالنجوم والكواكب الثوابت والسيارات ، ولا عجب فذلك تقدير العزيز الغالب على أمره ، العليم بكل ما فيهما لايخفى عليه شىء منهما ، فكيف يسوغ لكم أن تجعلوا الأوثان والأصنام شركاء له ، وليس لها شىء فى خلقهما وتقديرهما ، تعالى الله عن ذلك .

الإيضاح

(قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ؟) أى قل أيها الرسول لمشركى قومك توبيخا وتقريعا . كيف تكفرون بالله الذى خلق الأرض التى تقلكم

فى نوبتين ؟ فتقولوا إنه لايقدر على حشر الموتى من قبورهم ، وتنسبوا إليه الأولاد ، وتقولوا إنه لم يبعث أنبياء — أى كيف تقولون هـذا ، مع أنه خلق الأرض فى يومين .

(وتجعلون له أنداداً) أى وتجعلون له أنداداً وأمثالا من الملائكة والجن والأصنام والأوثان .

ثم شدد عليهم فى الإنكار و بين أن مثل هذا لاينبغى أن يكون فقال :

(ذلك رب العالمين) أى ذلك الذى خلق الأرض فى نوبتين نوبة جعلها جامدة بعد أن كانت كرة غازية ، ومرة جعلها ستا وعشرين طبقة فى ستة أطوار كما بين ذلك علماء طبقات الأرض(الجلوجيا) ــ هو رب العالمين لاربها وحدها ، فهو مربى المخلوقات جميعا ، فإن رباها فى نوبتين فقد ربى غيرها فى نوبات يعلم سبحانه عددها ، فكيف يكون شىء منها ندا له وضريبا ؟.

ثم بين إحكام ذلك الخلق وحسن تدبيره فقال :

(وجعل فيها رواسى من فوقها) أى وجعل فيها جبالا ثوابت مرتفعة عليها ، أسُسُها فى الأرض وهى الطبقة الصوانية ، وهذه الطبقة هى التى برزت منها الجبال ، فالجبال أساسها بعيدة الغور ضاربة فى جميع الطبقات واصلة إلى أول طبقة ، وهى الطبقة الصوانية التى لولاها لم تكن الأرض أرضا ولم نستقر عليها ، فأرضنا كرة من النار غطيت بطبقة صوانية فوقها طبقات ألطف منها تكوّن فيها الحيوان والنبات على مدى الزمان ، والجبال نتوءات نتأت من تلك الطبقة وارتفعت فوقها عشرات آلاف الكيلو مترات ، وصارت مخازن للمياه والمعادن وهداية للطرق وحافظة للهواء والسحاب .

(وبارك فيها) أى وجعلها مباركة كثيرة الخيرات بما خلق فيها من المنافع ، فجعل جبالها مبدأ لجريان الأنهار، ومخزنا للمعادن كالذهب والفضة والحديد والنحاس .

(وقدر فيها أقواتها) أى قدر لأهلها من الأقوات ما يناسب حال كل إقليم من مطاعم وملابس ونبات ، ليكون بعض الناس محتاجا إلى بعض ، فتروج المتاجر بينهم وتنتقل المحصولات من بلد إلى آخر ومن قطر إلى قطر ، وفى هذا عمار للأرض وانتظام أمور العالم .

ثم ذكر فذلكة لما تقدم فقال :

(فى أربعة أيام) أى إن خلق الأرض وجعل الرواسى فيها فى نوبتين ، وإكثار خيراتها وتقدير أقواتها فى نوبتين فيكون ذلك فى أربع نوبات كما يقول القائل خرجت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام وإلى الكوفة فى خمسة عشر يوما : أى فى تتمة خمسة عشر يوما .

وقصارى ذلك — إن حصول جميع ما تقدم من خلق الأرض وخلق الجبال الرواسى فيها وتقدير الأقوات فى أربعة أيام .

(سواء للسائلين) أى فى أربعة أيام كاملة على وفق مراد طالب القوت ومن له حاجة إليه وهو كل حيوان على وجه الأرض كما قال : « يَسْأَلُهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فالناس والحيوان جميعا كلهم سائلون ربهم ما يحتاجون إليه من طعام وشراب ولباس ورداء — سؤالا طبيعيا مغروسا فى جبلتهم .

ولما كان الإنسان يهتم بحال ما حوله من الأرض قدم ذكرها وبين أنها هى وما عليها قد كوّنها فى أربع نوبات ، فنوبة لتجمد المادة الأرضية بعد أن كانت غازا ، ونوبة لتكميل بقية طبقاتها ويدخل فى ذلك معادنها ، ومرة للنبات وأخرى للحيوان .

ولما انتهى من الكلام فى الأرض أخذ يذكر السماء ، فالترتيب فى الذكر فحسب فقال :

(ثم استوى إلى السماء وهى دخان) أى ثم دعا داعى الحكمة إلى خلق السماء وهى مادة غازية أشبه بالدخان أو بالسحاب أو بالسديم ؛ وتسمى فى العلم الحديث

(عالم السديم) وقد شاهدوا من تلك العوالم اليوم عوالم كثيرة فى عالم السديم آخذة فى البروز كما برزت شمسنا وسياراتها وأرضها وكانت فى الأصل دخانا .

وعلى الجملة فالتكوين لم يكن فى لحظة واحدة ، بل كان على وفق الحكمة والنظام فى غير نوبة ، وكفى بكتاب مقدس أن يقول : إنه خلق الأرض فى نوبتين، وما عليها فى نوبتين ، والسموات السبع كذلك .

ثم ذكر ما كان من شأنهما بعد خلقهما فقال :

(فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) أى فقال لتلك العوالم السماوية ، وللأرض التى دارت حولها : ائتيا كيف شئتما طائعتين أو كارهتين فأجابتا قالتا أتينا طائعين ، قال ابن عباس : قال الله تعالى للسموات : أطلعى شمسك وقمرك وكواكبك ، وأجرى رياحك وسحابك ، وقال للأرض : شقى أنهارك ، وأخرجى شجرك وثمارك ، طائعتين أو كارهتين : « قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » .

وفى هذا دلالة على الحركة المستمرة المعبر عن سببها بالجاذبية ، فهى حركة تجرى جرى طاعة لاجرى قسر، فإنا نشاهد أنا نرمى الحجر إلى أعلى قسرا فيأبى إلا أن ينزل إلى الأرض بطريق الجاذبية إلى جسم أكبر منه وهى الأرض ، وهكذا الأرض مجذوبة إلى الشمس التى هى أصلها بحركة دورية دائمة طوعا لا قسرا ، لأن القسرية كرمى الحجر إلى أعلى سريعة الزوال ، أما حركة الطاعة فهى دائمة مادام المطيع متخلقا بخلقه الذى هو فيه .

(فقضاهن سبع سموات فى يومين) أى فأتم خلقهن خلقا إبداعيا وأتقن أمرهن فى نوبتين سوى الأربعة الأيام التى خلق فيها الأرض ، فوقع خلق السموات والأرض فى ستة كما قال «خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» على مااقتضته الحكمة وحسن النظام .

ومن ذلك يفهم وجه الحكمة فى قوله — فقال لها وللأرض الخ ، وهى الدلالة على أن حركة الإتيان منهما كانت معا ، فبينما نرى الأرض دائرة حول نفسها وحول

الشمس نرى الشمس دائرة حول نفسها وحول شموس أخرى أكبر منها ، فهذا هو السبب فى ذكرها معا .

وقصارى ذلك — إنه قال لهما معا وأجابتاه معا ، لأن الأرض لما كانت ضمن المجموعة الشمسية كانت دائرة كبقية أجزائها .

(وأوحى فى كل سماء أمرها) أى وخلق فى كل منها ما استعدت له واقتضت الحكمة أن يكون فيها من بحار و برد وثلج إلى نحو أولئك مما لايعلمه إلا الله ، قاله السدى وقتادة .

(وزينا السماء الدنيا بمصابيح) أى بكواكب مضيئة متلألئة عليها كتلألؤ المصابيح ، وهى و إن تفاوتت ارتفاعا وانخفاضا فكلها ترى متلألئة .

(وحفظا) أى وحفظناها من الاضطراب فى سيرها ومن اصطدام بعضها ببعض ، وجعلناها تسير على نهج واحد مادام هذا النظام باقيا حتى يأتى اليوم الموعود ، فهناك تختل نظمها كما قال سبحانه : «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ» .

(ذلك تقدير العزيز العليم) أى إن ذلك الذى تقدم هو تقدير العزيز الذى قد عزّ كلّ شىء فغلبه وقهره ، العليم بحركات مخلوقاته وسكناتها ، سرها ونجواها ، ظاهرها و باطنها .

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْىِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) .

شرح المفردات

صاعقة : أى عذابا شديد الوقع كأنه صاعقة . قال المبرد : الصاعقة المرة المهلكة لأىّ شىء كان ، وهى فى الأصل الصيحة التى يحصل بها الهلاك ، أو قطعة نار تنزل من السماء معها رعد شديد ، من بين أيديهم ومن خلفهم : أى من كل ناحية ، صرصرا : أى باردة تهلك بشدة بردها . أنشد قطرب قول الحطيئة فى المديح :

المُطْعِمُون إذَا هبَّتْ بصَرْصَرَةٍ والحاملون إذا استُودُوا على الناس

استودوا : أى سئلوا الدية . نحسات واحدها نحسة (بكسر الحاء) أى نكدات مشئومات ، والهون : الذل .

المعنى الجملى

بعد أن أنكر عليهم عبادة الأنداد والأوثان وطلب إليهم ألا يعبدوا إلا الله الذى خلق السموات والأرض وزين السماء الدنيا بالمصابيح وأوجد فى الأرض جبالا رواسى أن تميد بهم ، ثم أعرضوا عن كل ذلك ، لم يبق حينئذ طريق للعلاج .

ومن ثم أمر رسوله أن ينذرهم بحلول شديد النقم بهم إن هم أصروا على عنادهم، كما نزل بعاد وثمود من قبلهم .

الإيضاح

(فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله) أى قل أيها الرسول لمشركى قومك المكذبين لما جئتهم به من الحق : إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله فإنى أنذركم بحلول نقمته بكم كما حلت بالأمم الماضية التى كذبت رسلها كعاد وثمود ومن على شاكلتهما ممن فعل فعلهما حين جاءتهم الرسل فى القرى المجاورة لبلادكم ، وأمروا أهلها بعبادة الله وحده ، فكذبوهم واستكبروا عن إجابة دعوتهم ، واعتذروا بشتى المعاذير كما ذكر ذلك سبحانه بقوله :

(قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون) أى قالوا إنا لا نصدق برسالتكم فما أرسل الله بشرا ، ولو أرسل رسلا لأنزل ملائكة ، وإذاً فلا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا .

وقد تقدم فى غير موضع دفع هذه الشبهة الداحضة التى جاءوا بها .وقوله :

« بما أرسلتم به » ليس إقراراً منهم بكونهم رسلا ، بل ذكروه استهزاء بهم كما قال فرعون : « إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » .

أخرج البيهقى فى الدلائل وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال « قال أبو جهل والملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم رجلا عالما بالسحر والكهانة والشعر فكلمه ، ثم أتانا ببيان من أمره ، فقال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت السحر والكهانة والشعر، وعلمت من ذلك علما ، وما يخفى علىّ إن كان كذلك ، فأتاه فقال يا محمد : أنت خير أم هاشم ، أنت خير أم عبد المطلب؟ فلم يجبه ، قال : لم تشتم آلهتنا وتضللنا ؟ إن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا، وإن تكن بك الباءة (الميل إلى قربان النساء) زوجناك عشر نسوة تختارهن ، أىّ بنات

من شئت من قريش ، وإن كان المال مرادك جمعنا لك ما تستغنى به ، ورسول الله ساكت ، فلما فرغ قال صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم حٰم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا — حتى بلغ — فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم ، فرجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم قالوا لا نرى عتبة إلا قد صبأ ، فانطلقوا إليه وقالوا يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت ، فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبداً ، ثم قال : والله لقد كلمته فأجابنى بشىء ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة ، ولما بلغ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته الرحم ، ولقد علمت أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب » .

وقد ذكرنا هذا القصص قبل برواية أخرى ، وهذه الرواية أتم من سابقتها فأعدناها تكميلا للفائدة .

ولما بين سبحانه كفر قوم عاد وثمود إجمالا وبين معاذيرها — أردف ذلك بذكر ما لكل منهما من الجناية وما حل به من العذاب فقال :

(فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟) أى فأما عاد فبغوا وعصوا ربهم ولم يقبلوا كلام الرسول الذى جاءهم وقالوا من أشد منا قوة؟ حتى يستطيع قهرنا وإذلالنا ، وقد كانوا قوما طوال القامة شديدى الأسر ، فاغتروا بأجسامهم حين تهددهم هود بالعذاب ، وقد روى فى قوتهم روايات ليس بنا حاجة إلى تصديقها كقولهم : إن الرجل منهم كان يقتلع الصخرة من الجبل بيده ويجعلها حيث يشاء .

فرد الله عليهم موبخا بقوله :

(أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؟) أى أما يفكرون فيمن يبارزون بالعداوة ؟ إنه العظيم الذى خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها ،

وإن بطشه لشديد ، وإنه لقادر على أن ينزل بهم من أنواع عقابه ما شاء ، فيقول : (كن فيكون) .

(وكانوا بآياتنا يجحدون) أى وكانوا يعرفون أن آياتنا التى أنزلناها على رسلنا حق لامرية فيها ، ولـكنهم جحدوها وعصوا رسله .

وقد يكون المراد : إنهم جحدوا الأدلة التكوينية التى نصبناها لهم ، وجعلناها حجة عليهم .

ثم ذكر سبحانه ما أنزل عليهم من عذابه فقال :

(فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا) أى فأرسلنا عليهم ريحا باردة تهلك بشدة بردها ، وإذا هبت سمع لها صوت قوىّ لتكون عقوبة لهم من جنس ما اغتروا به .

ثم بين سبحانه وقت نزول العذاب عليهم فقال :

(فى أيام نحسات) أى فى أيام مشئومات نكدات متتابعات كما قال فى آية أخرى : « سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا » .

ثم بين الغاية التى من أجلها نزل العذاب فقال :

(لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا) أى أنزلنا عليهم هـذا العذاب كى نذيقهم الذل والهوان فى الحياة الدنيا بسبب ذلك الاستكبار .

ثم أرشد إلى أن هذا العذاب هين يسير إذا قيس بعذاب الآخرة فقال :

(ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون) أى ولعذاب الآخرة أشـد إهانة وخزيا من عذاب الدنيا ، وهم لايجدون إذ ذاك نصيرا ولا معينا يدفعه عنهم .

وبعد أن ذكر قصص عاد أتبعه بقصص ثمود فقال :

(وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) أى وأما ثمود فبينا لهم الحق على لسان نبيهم صالح ، ودللناهم على سبل النجاة بنصب الأدلة التكوينية ، وإنزال الآيات التشريعية ، فـكذبوه واستحبوا العمى على الهدى ، والـكفر على الإيمان .

ثم ذكر جزاءهم على ما اختاروه لأنفسهم فقال :

(فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون) أى فأرسلنا عليهم صيحة ورجفة وذلا وهوانا ، بما كانوا يكسبون من الآثام بكفرهم بالله وتكذيبهم رسله .

(ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) أى ونجينا صالحا ومن آمن معه من المؤمنين من ذلك العذاب ، فلم يمسسهم سوء ولا نزل بهم مكروه ، بإيمانهم وتقواهم وصالح أعمالهم .

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) .

شرح المفردات

يوزعون : أى يحبس أولهم ليلحق آخرهم لكثرتهم ؛ من قولهم ، وزعته : أى كففته ، جلودهم : أى جوارحهم ، أرداكم : أى أهلككم ، مثوى : أى مقام ، وإن يستعتبوا : أى يطلبوا العتبى والرضا ، من المعتبين : أى المجابين إلى ما يطلبون

يقال أعتبنى فلان : أى أرضانى بعد إسخاطه إياى ، قال الخليل : تقول استعتبته فأعتبنى : أى استرضيته فأرضانى ، قال النابغة فى اعتذارياته للنعمان بن المنذر :

فإن أكُ مظلوما فعبدٌ ظلمتَه وإن يك ذا عُتْبَى فمثلك يُعْتِبُ

المعنى الجملى

بعد أن بين كيف عاقب أولئك الجاحدين فى الدنيا وأذاقهم عذاب الهون بما كانوا يكسبون — أردف ذلك بذكر عقابهم فى الآخرة ، ليكون ذلك أتمّ للزجر ، وأكثر فى الاعتبار لمن اعتبر .

الإيضاح

(ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون) أى واذكر أيها الرسول لقريش المعاندين لك حال الكفار يوم القيامة ، لعلهم يرتدعون ويزدجرون حين يساقون إلى النار ، فيحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ويجتمعوا قاله السدى وقتادة وغيرهما .

وفى هذا إيماء إلى كثرة عددهم وشدة سوقهم ودفعهم .

(حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) أى حتى إذا وُقفوا على النار شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجوارحهم بما كانوا يعملون فى الدنيا من المعاصى ، بعلامات متمايزة تدل على الأخلاق المختلفة ، لكل خلق منها علامة خاصة نحن لا نعرف الآن كنهها ، وربما كانت سوائل روحية ، كل سائل يدل على خلق من الأخلاق كما يكون فى أنواع النبات والشجر روائح مختلفة ؛ فالعلم والحلم والنشاط وحب الناس لها سوائل جميلة ، والجهل والطيش والكسل وبغض الناس لها سوائل رديئة ، وتلك السوائل تلازمهم فتكون مشقية لهم ومضايقة ، أو مفرحة لهم ومنعمة ، وهكذا الأجسام بعد الموت لا تشبه نفس نفسا أخرى فى أوصافها ، فهذه هى الشهادة التى تشهد بها أسماعهم وأبصارهم وجلودهم .

ثم ذكر سبحانه أنهم لاموا جوارحهم على أداء الشهادة التى تلزمهم الحجة، فحكى عنهم قولهم لها .

(وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟) أى قالوا على جهة اللوم والمؤاخذة لجلودهم حين شهدوا عليهم ، لم شهدتم علينا ؟ وقد كانوا فى الدنيا مساعدين لهم على المعاصى ، فكيف يشهدون عليهم الآن ؟ .

فأجابوهم حينئذ معتذرين :

(قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء) أى قالوا : إن الله جعل فينا من الدلالات الفعلية ما يقوم مقام النطق ، بل ما هو أفصح منها ، فشهدنا عليكم بما فعلتم من القبائح .

وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك فقال : هل تدرون مم أضحك ؟ قلنا الله ورسوله أعلم قال : من مخاطبة العبد ربه ، يقول : ألم تجرنى من الظلم؟ قال: يقول بلى . قال فيقول فإنى لاأجيز على نفسى إلا شاهدا منى . قال : يقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام الكاتبين شهودا ، قال : فيختم على فيه فيقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بأعماله ، قال ثم يخلّى بينه وبين الكلام ، قال : فيقول بُعْدًا لكن وسُحْقاً ، فعنكنّ كنت أناضل» .

(وهو خلقكم أول مرة) فهو لايخالَف ولا يمانَع ، وقد جعل فيكم دلائل واضحة كخطوط اليد والإبهام والأصوات وألوان الوجوه وأشكالها ، ولكنّ قليلا من الناس من يفطن إلى ذلك .

فمن قدر على خلقكم وإنشائكم ابتداء قدر على إعادتكم ورجعكم إليه ، ومن ثم قال :

(وإليه ترجعون) أى وإليه مصيركم بعد مماتكم ، فيجازى كل نفس بما كسبت لامعقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

ثم وبختهم جلودهم على ما كانوا يفعلون فى الدنيا فقالت لهم :

(وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) أى وما كنتم تَسْتَخْفون حين تفعلون قبيح الأعمال ، وترتكبون عظيم الفواحش ـ بالحيطان والحجب حذراً من شهادة الجوارح عليكم ، بل كنتم تجاهرون بالكفر والمعاصى ، وتجحدون البعث والجزاء .

قال عبد الأعلى بن عبد الله الشامى فأحسن :

العمرُ ينقص والذنوبُ تزيد وتقال عَثْراتُ الفتى فيزيدُ

هل يستطيع جحودَ ذنب واحد رجلٌ جوارحُه عليه شهودُ

والمرء يُسأل عن سِنيه فيَشْتَهى تقليلَها وعن الممات يحيدُ

(ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيرا مما تعملون) أى ولكن ظننتم عند استتاركم من الناس مع عدم استتاركم من أعضائكم أن الله لايعلم كثيرا مما كنتم تعملون من المعاصى فاجترأتم على فعلها .

والخلاصة — إنكم كنتم فى الدنيا تستترون عن الناس خوف الفضيحة والعار حين ارتكاب الذنوب ، وما ظننتم أن أعضاءكم وجسمكم الأثيرى الذى هو على صورة الجسم الظاهرى قد سطرت فيه جميع أعمالكم ، كأنه لوح محفوظ لها فلذلك ما كنتم تستترون عنها بترك الذنوب .

وفى الآية إيماء إلى أنه لاينبغى للمؤمن أن تمر عليه حال إلا وهو يفكر فى أن الله رقيب عليه ، كما قال أبو نواس :

إذا ما خلوتَ الدهر يوما فلا تقل خلوتُ ولكن قلْ علىَّ رقيب

ولا تحسبنّ اللهَ يغفل ساعةً ولا أنَّ ما يخفى عليه يغيب

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: «كنت مستترا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشى وثقفيان ، أو ثقفى وقرشيان ، قليلٌ فقه قلوبهم ، كثير شحم

بطونهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعه ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخر إن سمع منه شيئا سمع كله ، قال : فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل : « وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ — إلى قوله مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

(وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) أى وهذا الظن الفاسد الذى كان منكم فى الدنيا وهو أن الله لا يعلم كثيرا من قبائح أعمالكم ومساويها — هو الذى أوقعكم فى مواقع التلف والردى ، فصرتم اليوم من الهالكين إذ صرفتم ما منحتم من أسباب السعادة إلى الشقاء ، فكفرتم نعم الخالق والرازق ، وانهمكتم فى الشهوات والمعاصى .

أخرج أحمد وأبو داود والطيالسى وعبد بن حميد ومسلم ، وأبو داود وابن ماجه وابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى ، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله فقال الله : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

قال العلماء : الظن قسمان :

(١) حسن ؛ وهو أن يظن بالله عز وجل الرحمة والفضل والإحسان ، قال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله عز وجل « أنا عند ظن عبدى بى » .

(٢) قبيح ؛ وهو أن يظن أن الله يعزب عن علمه بعض الأفعال .

وقال قتادة ، الظن نوعان : مُنَجٍّ ومُرْدٍ .

(١) فالمنجى قوله : « إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ » وقوله : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ » .

(٢) والمردى هو قوله : « وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ » .

وقال عمر بن الخطاب فى هذه الآية : هؤلاء قوم كانوا يدمنون على المعاصى ، ولا يتوبون منها ، ويتكلمون على المغفرة ، حتى خرجوا من الدنيا مفاليس ، ثم قرأ : « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

وقال الحسن البصرى : إن قوما ألهتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة ، ويقول أحدهم : إنى أحسن الظن بربى وقد كذب، ولو أحسن الظن لأحسن العمل ، وتلا قول الله : « وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

ثم أخبر عن حالهم فقال :

(فإن يصبروا فالنار مثوى لهم) أى فإن أمسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه لم يجدوا وتكون النار مثوى لهم ومُقاما .

(وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) أى وإن يبدوا معاذير فلن تقبل منهم ولا تقال لهم العثرات .

ونحو الآية قوله تعالى : « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَالَنَا مِنْ مَحِيصٍ » .

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا

أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) .

شرح المفردات

وقيضنا : أى يسرنا وهيأنا ، قرناء : واحدهم قرين : أى أخدانا وأصحابا من غواة الجن والإنس ، والغوا فيه : أى عارضوه باللغو والباطل حين يقرأ لتهوّشوا عليه ، دار الخلد : أى دار الإقامة المستمرة ، تحت أقدامنا : أى ندوسهما بهما انتقاما منهما.

المعنى الجملى

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد الشديد فى الدنيا والآخرة على الكفر والمعاصى أردف ذلك بذكر السبب الذى من أجله وقعوا فى الكفر ، ثم حكى عنهم جناية أخرى وهى أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن عملوا الحيلة فى عدم إسماع الناس له حتى لايتدبروا معناه ، فتشاغلوا حين قراءته برفع الأصوات وإنشاء الأشعار حتى يهوشوا على القارئ ويغلبوا على قراءته ؛ ثم ذكر أنهم حين يقعون فى العذاب الشديد يطلبون أن يروا من كانوا السبب فى وقوعهم فى الضلال من الجن والإنس ليدوسوهم تحت أقدامهم انتقاما منهم على أن صيروهم فى هذه الهاوية .

الإيضاح

(وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى وسلطنا عليهم إخوانا وأعوانا من شياطين الجن والإنس ، فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا من الضلالة والكفر واتباع الشهوات ، وما خلفهم من أمر الآخرة ، فألقوا إليهم أن لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب ، إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا

وما يهلكنا إلا الدهر ، فسهل عليهم فعل ما يشتهون ، وركوب كل ما يتلذذون به من الفواحش .

(وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس) أى ووجب عليهم من العذاب ما وجب على الذين كفروا من قبلهم ممن فعلوا فعلهم .

ثم علل استحقاقهم للعذاب فقال :

(إنهم كانوا خاسرين) أى لأنهم استووا جميعا فى الخسار والدمار واستحقوا اللعن والخزى فى الحياة الدنيا والآخرة .

و بعد أن أخبر عن كفر قوم هود وصالح وغيرهم أخبر عن مشركى قريش وأنهم كذبوا بالقرآن فقال :

(وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) أى وقال الذين كفروا بالله ورسوله : لاتنصتوا لسماع هذا القرآن ، وعارضوه باللغو والباطل بإنشاد الشعر والأراجيز حتى تهوشوا على القارئ لعلكم تغلبون على قراءته ، وتميتون ذكره .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته ، فكان المشركون يطردون الناس عنه و يقولون : الغوا فيه بالبكاء والصفير و إنشاد الشعر .

قال ابن عباس : قال أبو جهل إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لايدرى ما يقول :

وقد يكون المعنى لاتطيعوا . من قولهم : سمعت لك : أى أطعتك .

ثم أوعد الكفار بالعذاب الشديد فقال :

(فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون) أى فلنذيقن الكافرين عذابا لايحاط بوصفه ، ولنجازينهم بأسوإ أعمالهم ، لأن أعمالهم الحسنة كصلة الأرحام و إكرام الضيف قد أحبطها الكفر، ولم يبق لهم إلا القبيح ، ومن ثم لم يجازَوا إلا على السيئات .

وفى هذا تعريض بمن لايخشع ولا يتدبر حين سماع القرآن ، وتهديد ووعيد لمن يصدر منه حين سماع القرآن ما يهوش على القارئ ويخلط عليه القراءة .

ثم بين العذاب الشديد الذى يحيق بهم فقال :

(ذلك جزاء أعداء الله النار) أى ذلك الجزاء المعدّ لأعداء الله هو النار .

(لهم فيها دار الخلد) أى إنهم مخلدون فيها أبدا لا انقطاع لعذابها ولا انتقال منها .

ثم ذكر أن هذا جزاء لما عملوا فقال :

(جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون) أى هى جزاء لهم على جحودهم بآياتنا ، واستكبارهم عن سماعها .

ثم بين أنهم حين وقوعهم فى العذاب الشديد يطلبون الانتقام ممن أضلوهم من شياطين الإنس والجن فقال :

(وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) أى وقال الكافرون وهم يتقلبون فى العذاب : ربنا أرنا شياطين الإنس والجن الذين أوقعونا فى الضلال ندسهم تحت أقدامنا انتقاما منهم ومهانة وذلة لهم .

وقصارى ذلك — إنهم طلبوا من ربهم أن يريهم من أضلهم من فريقى الجن والإنس من الرؤساء الذين كانوا يزينون لهم الكفر ، والشياطين الذين كانوا يوسوسون لهم ويحملونهم على المعاصى .

والشياطين على ضربين : جنىّ وإنسىّ، قال تعالى : «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » وقال : « الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ » .

وقال علىّ كرم الله وجهه : هما ابن آدم الذى قتل أخاه وإبليس أى لأنهما هما اللذان سنّا المعصية .

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) .

شرح المفردات

استقاموا : أى ثبتوا على الإيمان ولم يرجعوا إلى الشرك ، أولياؤكم : أى أعوانكم فى شئونكم ، تدّعون : أى تتمنون وتطلبون ، النزل : ما يهيأ للضيف ليأكله حين نزوله .

المعنى الجملى

بعد أن أسلف القول فى وعيد الكفار بما لم يبق بعده فى القوس منزع — أعقبه بهذا الوعد الشريف للمؤمنين كما هى سنة القرآن من إتباع أحدهما بالآخر كما جاء فى قوله : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

قال عطاء عن ابن عباس نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق .

الإيضاح

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) أى إن الذين قالوا ربنا الله اعترافا بربوبيته ، وإقراراً بوحدانيته ، ثم ثبتوا على ذلك فلم تزلّ أقدامهم ، ويدخل فى هذا كل العبادات والاعتقادات .

قال أبو بكر رضى الله عنه : الاستقامة ألا يشركوا بالله شيئا . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والدارمى والبخارى فى تاريخه ومسلم والنسائى وابن ماجه وابن حبان عن سفيان بن عبد الله الثقفى « أن رجلا قال : يا رسول الله مرنى بأمر فى الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » قلت : فما أتقى ؟ فأومأ إلى لسانه » قال الترمذى حسن صحيح .

والخلاصة — الاستقامة : الاعتدال فى الطاعة اعتقاداً وقولا وفعلا مع الدوام على ذلك .

(تتنزل عليهم الملائكة) من عند الله سبحانه بالبشرى التى يريدونها من جلب نفع أو دفع ضر أو رفع حزن ؛ أى بكل ما يعنّ لهم من الشئون الدنيوية والدينية مما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام ، كما أن الكفار يغويهم قرناء السوء بتزيين المعاصى وارتكاب الآثام .

قال وكيع : البشرى تكون فى ثلاثة مواطن : عند الموت ، وفى القبر ، وعند البعث.

(ألا تخافوا ولا تحزنوا) أى لا تخافوا مما تقدمون عليه من أمور الآخرة ، ولا تحزنوا على ما فاتكم من أمور الدنيا من أهل وولد ومال .

وقال عطاء : لا تخافوا رد ثوابكم فإنه مقبول ، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإنى أغفرها.

(وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) أى ويقال لهم : أبشروا بالجنة التى وعدتم بها على ألسنة الرسل فى الدنيا ، فإنكم واصلون إليها ، مستقرون بها خالدون فى نعيمها .

ثم بشرهم سبحانه بما هو أعظم من هذا كله فقال :

(نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) أى نحن أعوانكم فى أمور دنياكم نلهمكم الحق ، ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم فى دنياكم ، وكذلك نكون معكم فى الآخرة نؤمّنكم من الوحشة فى القبور ، وعند النفخة فى الصور ، ويوم البعث والنشور ، ونجاوزكم الصراط المستقيم ، ونوصلكم إلى جنات النعيم .

وقصارى ذلك — نحن المتولون حفظكم وولايتكم فى أمور الدنيا وأمور الآخرة ومن كان الله وليّه فاز بكل مطلب ، ونجا من كل مخافة .

(ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم) من صنوف اللذات وأنواع النعم .

(ولكم فيها ما تدّعون) أى ولكم فيها ما تمنون وتطلبون .

ونحو الآية قوله : « وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ » .

والجملة الأولى باعتبار شهوات أنفسهم ، والثانية باعتبار ما يطلبون سواء أكان مشتهى لهم أم لا ، إذ لا يلزم أن يكون كل مطلوب مشتهى كالفضائل العلمية ونحوها.

(نزلاً من غفور رحيم) أى أعطاكم ربكم ذلك كرامة من لدنه ، وهو الغفور لذنوبكم ، الرحيم بكم أن يعاقبكم بعد توبتكم .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؟ (٣٣) وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) .

شرح المفردات

دعا إلى الله : أى دعا إلى توحيده ، المسلمين: أى الخاضعين ، الحسنة : ما ترضى الله ويتقبلها ، والسيئة : ما يكرهها ويعاقب عليها ، ادفع : أى ردّ ، والحميم: الصديق ، وما يلقاها : أى يتقبلها ويحتملها ، حظّ : أى نصيب وافر من الخير ، ينزغنك : أى يوسوسنّ لك ، وأصل النزغ : النخس ، فاستعذ بالله : أى التجئ إليه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن قرناء السوء يدعون إلى المعاصى — أردف ذلك بذكر حال أضدادهم الذين يدعون الناس إلى توحيد ربهم وطاعته ، ثم أعقب هذا بأن الحسنة والسيئة لا يستويان ثوابا عند الله ، ثم أمر رسوله بدفع سفاهات المشركين وجهالاتهم بطريق الحسنى ، لما فى ذلك من تألف القلوب ، وارعواء النفوس عن غيّها ، وثوْبها إلى رشدها ، وأرشد إلى أن هذه فعلة لا يتقبلها إلا الصابرون على احتمال المكاره ، ومن لهم حظ عظيم من الثواب عند الله ، ثم ختم ذلك بتلك النصيحة الذهبية ، وهى أنه إذا صرف الشيطانُ المرء عن شىء مما شرعه الله فليتعوذ من شره ولا يطعه فى أمره ، والله سميع لما يقول ، عليم بكل ما يفعل ، وهو المجازى له على ذلك .

الإيضاح

(ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ؟) أى لا أحد أحسن قولا ممن جمع بين خصال ثلاث :

(١) الدعاء إلى توحيد الله وطاعته ، قال ابن سيرين والسُّدى وابن زيد والحسن : والداعى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا ولىّ الله ، هذا صفوة الله ، هذا خِيرة الله ، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله فى دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه .

(٢) العمل الصالح بفعل الطاعات ، واجتناب المحرمات .

(٣) أن يتخذ الإسلام دِينا ويخلص إلى ربه ، من قولهم : هذا قول فلان أى مذهبه ومعتقده .

وقد يكون المراد أنه يتلفظ بذلك ابتهاجا بأنه منهم وتفاخراً به مع قصد الثواب .

وبعد أن ذكر محاسن الأعمال التى بين العبد وربه — ذكر محاسن الأعمال التى بين العباد بعضهم مع بعض ترغيبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصبر على أذى المشركين ومقابلة إساءتهم بالإحسان فقال :

(ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) أى ولا تتساوى الحسنة التى يرضى الله بها ويثيب عليها ، والسيئة التى يكرهها ويعاقب عليها .

وقد يكون المعنى — ولا تستوى دعوة الرسول إلى الدين الحق بالطرق المثلى ، والصبر على سفاهة الكفار ، وترك الانتقام منهم ـ وما أظهروه من الغلظة والفظاظة فى قولهم : « قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » وقولهم : « لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ » .

والخلاصة — إن فعلك أيها الرسول حسنة ، وإن فعلهم سيئة ، فإذا أتيت بهذه الحسنة استحققت التعظيم فى الدنيا ، والمثوبة فى الآخرة ، وهم بضد ذلك ، فلا ينبغى أن يكون إقدامهم على السيئة مانعا من الاشتغال بالحسنة .

ثم ذكر بعض الحسنات ووضحها بذكر بعض ضروبها فقال :

(ادفع بالتى هى أحسن) أى ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق التى هى أحسن الطرق ، فقابل إساءتهم بالإحسان إليهم ، والذنب بالعفو ، والغضب بالصبر والإغضاء عن الهفوات ، واحتمال المكاره ، فإنك إن صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى ولم تقابل سفههم بالغضب ، ولا أذاهم بمثله ، استحيوا من ذميم أخلاقهم ، وتركوا قبيح أفعالهم .

ثم بين نتائج الدفع بالحسنى فقال :

(فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم) أى إنك إن فعلت ذلك انقلبوا من العداوة إلى المحبة ، ومن البغض إلى المودة ، قال عمر : ما عاقبتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، وقال ابن عباس : أمره الله تعالى فى هذه الآية بالصبر

عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعل الناس ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم .

وروى أن رجلا شتم قَنْبَرا مولى علىّ بن أبى طالب ، فناداه علىّ يا قَنْبَر دع شاتمك ، والله عنه تُرض الرحمٰن ، وتسخط الشيطان .

وقالوا ما عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه ، ولله در القائل :

وللكفُّ عن شتم اللئيم تكرما   أضرُّ له من شتمه حين يُشْتَم

وقال آخر :

وما شىء أحبُّ إلى سفيهٍ   إذا سبَّ الكريم من الجواب
متاركةُ السفيه بلا جواب   أشدُّ على السفيه من السِّباب

وقال محمود الوراق :

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب   وإن كثرت منه لدىّ الجرائم
فما الناس إلا واحد من ثلاثة   شريف ومشروف ومِثْلٌ مقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف قدره   وأتْبَع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فإن قال صُنْتُ عن   إجابته عرضى وإن لام لائم
وأما الذى مثلى فإن زلّ أو هفا   تفضلتُ إن الفضل بالحلم حاكم

وقال آخر :

إن العداوة تستحيل مودةً   بتدارك الهفوات بالحسنات

قال مقاتل : نزلت الآية فى أبى سفيان بن حرب كان معاديا للنبى صلى الله عليه وسلم فصار له وليًّا فى الإسلام حميا بالمصاهرة .

ثم نبه إلى عظيم فضل هذه الطريق بقوله :

(وما يلقاها إلا الذين صبروا) أى ومايقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا الصابرون

على تحمل المكاره وتجرّع الشدائد وكظم الغيظ وترك الانتقام ، فإن ذلك يشق على النفوس ، و يصعب احتماله فى مجرى العادة إلا من عصم الله .

وقال أنس فى تفسير ذلك : الرجل يشتمه أخوه فيقول : إن كنتَ صادقا غفر الله لى ، و إن كنتَ كاذبا غفر الله لك .

(وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) أى وما يتقبلها إلا ذو نصيب وافر من السعادة فى الدنيا والآخرة .

قال قتادة : الحظ العظيم الجنة ، أى وما يلقاها إلا من وجبت له الجنة .

ثم ذكر طريقا لمنع تهييج الشر ودفع الغضب إذا بدت بوادره فقال :

(و إما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) أى و إن وسوس إليك الشيطان ليحملك على مجازاة المسىء فاستعذ بالله من كيده وشره ، واعتصم من خطراته ، إنه هو السميع لاستعاذتك منه ، واستجارتك به من نزغاته ولغير ذلك من كلامك وكلام غيرك ، العليم بما ألقى فى رُوعك من نزغاته وحدثتك به نفسك وما قصدت من صلاح ، ونويت من إحسان .

ومن شياطين الإنس من يفعل مثل هذا ، فيصرف عن الدفع بالتى هى أحسن ، فيقول لك: إن فلانا عدوك الذى فعل بك كيت وكيت ، فانتهزِ الفرصة ، وخذ ثأرك منه لتعظم فى عينه وأعين الناس ، ولا يظنَنّ فيك العجز وقلة الهمة وعدم المبالاة إلى نحو أولئك من العبارات المثيرة للغضب التى ربما لا تخطر ببال شياطين الجن — نعوذ بالله من شر كل شيطان .

والخلاصة — إن صرفك الشيطانُ عما شرعتَ فيه من الدفع بالحسنى ، فاستعذ بالله من شره ، وامض لشأنك ، ولا تطعه .

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) .

شرح المفردات

الآية : هي البرهان والحجة ، يسأمون : أي يملّون ، خاشعة : أي جامدة يابسة لا نبات فيها ، اهتزت : أي تحركت ، وربت : أي انتفخت .

المعنى الجملي

لما ذكر في الآيات السابقة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى - أردفه بذكر الدلائل على وجوده تعالى وقدرته وحكمته ، تنبيها إلى أن الدعوة إلى الله هي تقرير الدلائل على ذاته وصفاته ، ثم ذكر منها الدلائل الفلكية وهي الليل والنهار والشمس والقمر ، ثم أتبعها بآية أرضية تشاهد رأى العين في كل حين وهي حال الأرض حين خلوّها من المطر والنبات ، ثم حالها بعد نزول المطر ، فهي تنتعش بعد أن كانت ميتة ، وتهتز بعد أن كانت ساكنة ، والذي أحياها هو الذي يحيي الموتى ، إنه على كل شيء قدير .

الإيضاح

(ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر) أي ومن حجج الله تعالى على خلقه ودلالتها على وحدانيته وعظيم سلطانه — الليل والنهار ، ومعاقبة كل منهما صاحبه ،

والشمس ونورها ، والقمر وضياؤه ، وتقدير منازلها فى فلكيهما ، واختلاف سيرهما فى السماء ، ليعرف بذلك مقادير الليل والنهار والأسابيع والشهور والأعوام ، وبذلك تضبط المعاملات وأوقات العبادات .

ولما كانت الشمس والقمر من أجل الأجرام المشاهدة فى العالم العلوى والسفلى نبه إلى أنهما مخلوقان مسخران له تعالى وهما تحت قهره وسلطانه فلا تعظموهما وعظموا خالقهما فقال :

(لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) أى لا تسجدوا أيها الناس للشمس والقمر ، فإنهما إنما يجريان بمنافعكم بإجراء الله إياهما طائعين له فى جريهما ، وهما لا يستطيعان لكم نفعا ولا ضرا ، فله فاسجدوا ، وإياه فاعبدوا دونهما ، لأنهما لا فضيلة لهما فى أنفسهما ، فيستحقا بها العبادة من دون الله ، ولو شاء الله لأعدمهما أو طمس نورهما .

وفى هذا رد على الصابئة الذين عبدوا الكواكب والنجوم ، وزعموا أنهم بعبادتهم إياها يعبدون الله ، فنهوا عن ذلك .

(فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) أى فإن استكبر هؤلاء المشركون الذين يعبدون هذه الكواكب وأبوا إلا أن يسجدوا لها وحدها دون الله — فالله لا يعبأ بهم ، فالملائكة الذين فى حضرة قدسه وهم خير منهم لا يستكبرون عن عبادته ، بل يسبحون له ويصلون ليلا ونهارا ، وهم لا يفترون عن ذلك ولا يملّون .

ولما ذكر الدلائل الفلكية أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال :

(ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) أى ومن الأدلة على قدرته تعالى على البعث وإحياء الموتى بعد بلاها وإعادتها لهيئتها كما كانت من بعد فنائها — أنك ترى الأرض يابسة غبراء لا نبات بها ولا زرع ،

فإذا نزل عليها من السماء الغيث تحركت بالنبات وانتفخت وأخرجت ألوان الزرع والثمار ، كما يشاهد من ارتفاع الأرض وانتفاخها ثم تصدعها وتشققها إذا حان ظهور النبات منها ، وتراه يسمو فى الجوّ ويغطى قشرتها ، ثم تتشعب عروقه ، وتغلظ سُوقه .

(إن الذى أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شىء قدير) أى إن الذى أحيا هذه الأرض الدارسة ، وأخرج منها النبات ، وجعلها تهتز بالزرع — قادر على أن يحيى أموات بنى آدم بعد مماتهم ، وهو القدير على كل شىء ، لا يعجزه شىء كائنا ما كان.

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ، أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) .

شرح المفردات

يقال: ألحد الحافر فى الأرض : إذا مال عن الاستقامة فحفر فى شق منها ، والمراد بالملحدين المنحرفون فى تأويل الآيات بحملها على المحامل الباطلة ، والذكر . القرآن ، من بين يديه ومن خلفه : أى من جميع جهاته ، حكيم : أى فى جميع أفعاله ، حميد : أى محمود إلى جميع خلقه بكثرة نعمه عليهم .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن الدعوة إلى دين الله أسمى المقاصد ، وأنها إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد وصحة البعث يوم القيامة — أعقب هذا بتهديد من ينازع

فى تلك الدلائل بإلقاء الشبهات ، ثم هددهم بضروب من التهديد ، فهددهم بقوله : « لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا » وبقوله : « اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » وبقوله : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ الخ » .

الإيضاح

(إن الذين يلحدون فى آياتنا لايخفون علينا) أى إن الذين يميلون عن الحق فى حججنا تكذيبا بها وجحودا لها — نحن بهم عالمون لايخفون علينا ، ونحن لهم بالمرصاد إذا وردوا علينا ، وسنجازيهم بما يستحقون .

ولا يخفى ما فى ذلك من شديد الوعيد كما يقول الملك المهيب: إن الذين ينازعوننى فى ملكى أعرفهم ، ولا شك فهو يريد تهديدهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم .

ثم بين كيفية الجزاء والتفاوت بين المؤمن والكافر فقال :

(أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ؟) أى أفمن يلقى فى النار لإلحاده بالآيات وتكذيبه الرسول خير أم من آمن بها وجاء يوم القيامة من الآمنين حين يجمع الله الخلائق للعرض عليه والحكم بينهم بالعدل ؟ لاشك أنهما لا يستويان.

وظاهر الآية العموم وتمثيل حالى المؤمن والكافر ، وقيل المراد بمن يلقى فى النار أبو جهل ، وبمن يأتى آمنا النبى صلى الله عليه وسلم .

وعن بشير بن تميم قال : نزلت فى أبى جهل وعمار بن ياسر .

وبعد أن أبان لهم عاقبة الملحدين بالآيات والمؤمنين بها ، هددهم بقوله :

(اعملوا ما شئتم) فقد علمتم مصير المسىء والمحسن ، فمن أراد أحد الجزاءين فليعمل له فإنه ملاقيه .

(إنه بما تعملون بصير) أى إنه بأعمالكم ذو خبرة وعلم لاتخفى عليه خافية منها ولا من غيرها ، وهو مجازيكم على حسب أعمالكم .

ثم بين أولئك الملحدين بقوله :

(إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم) أى إن الملحدين هم الذين جحدوا هذا القرآن وكذبوا به حين جاءهم .

ثم وصف الذكر بقوله :

(١) (وإنه لكتاب عزيز) أى وإنه لكتاب عزيز عن أن يعارض أو يطعن فيه الطاعنون ، منيع عن كل عيب ، محمىّ بحماية الله .

(٢) (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) أى ليس للبطلان إليه سبيل ، فلا تكذبه الكتب السابقة عليه كالتوراة والإنجيل ، ولا يجىء من بعده كتاب يكذبه ، قاله سعيد بن جبير والكلبى .

وقال الزجاج : معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه ، وبه قال قتادة والسُّدّى .

وقصارى ذلك — إن الباطل لا يتطرق إليه ولا يجد لديه سبيلا من جهة من الجهات حتى يصل إليه ، فكل ما فيه حق وصدق وليس فيه ما لا يطابق الواقع .

(٣) (تنزيل من حكيم حميد) أى وهو تنزيل من عند ذى الحكمة بتدبير شئون عباده ، المحمود على ما أسدى إليهم من النعم التى منها تنزيل هذا الكتاب ، بل هى أجلها .

مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ؟ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ

مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦) .

المعنى الجملى

بعد أن هدد الملحدين فى آياته — سلّى رسوله عما يصيبه من أذى المشركين وطعنهم فى كتابه ، وحثه على الصبر، وألا يضيق صدره بما حكاه عنهم من نحو قولهم: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ» وقولهم: «فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ» ، فما قاله أولئك الكفار فى شأنه وشأن ما أنزل إليه من القرآن لايعدو شأن ما قاله أمثالهم من الأمم السابقة ، ثم أجاب عن شبهة قالوها ، وهى هلا نزل القرآن بلغة العجم — بأنه لو نزل كما يريدون لأنكروا أيضا وقالوا مالنا وللعجمة ؟ ثم ذكر أن القرآن هداية وشفاء للمؤمنين ، والذين لايؤمنون به فى آذانهم صمم عن سماعه ، ثم ذكر أن الاختلاف فى شأن الكتب عادة قديمة للأمم ، فقومك ليسوا ببدع فيها بين الأمم ، ثم أبان أن المرء وما عمل ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، ولا يظلم ربك أحداً .

الإيضاح

(ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) أى ما يقول لك هؤلاء المشركون المكذبون ما جئتهم به من عند ربك إلا مثل ما قالته الأمم التى كذبت رسلها من قبلهم ، فاصبر على ما نالك منهم من أذى كما صبر أولو العزم من الرسل ، وقد يكون المعنى — ما يقال لك من التوحيد وإخلاص العبادة لله إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، فإن الشرائع كلها متفقة على ذلك وإن اختلفت فى غير هـذا ، تبعا للزمان والمكان .

ونحو الآية على المعنى الأول قوله : « كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ » .

وعلى المعنى الثانى قوله : « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » .

ثم ذكر علة أمره بالصبر فقال :

(إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم) أى إن ربك لذو مغفرة للتائبين إليه من ذنوبهم بالصفح عنهم ، وذو عقاب مؤلم لمن أصرّ على كفره ومات على ذلك قبل التوبة .

ثم أجاب عن شبهة قالوها ، وهى هلا نزل القرآن بلغة العجم فقال :

(ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ءأعجمى وعربى ؟) أى ولو جعلنا هذا القرآن الذى أنزل إليك بلغة العجم — لقال قومك من قريش : هلا بينت أدلته وما فيه من حكم وأحكام بلغة العرب حتى نفقهه ونعلم ما هو وما فيه ، وكانو يقولون منكرين : أقرآن أعجمى ولسان المرسل إليهم عربى ؟

وخلاصة ذلك — لو نزل بلسان أعجمى لقالوا هلا بينت آياته باللسان الذى نفهمه ، ولقالوا : أكلام أعجمى والمرسل إليهم عرب خلص ؟

ثم بين حال القرآن لدى المؤمنين والكافرين فقال :

(قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) أى قل لهم ردّا على قولهم : وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ : إن هذا القرآن للذين صدقوا بما جاءهم به من عند ربهم — هاد إلى الحق ، شاف لما فى الصدور من ريبة وشك ، ومن ثم جاء بلسانهم معجزا بيّنا فى نفسه مبينا لغيره .

ونحو الآية قوله : « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » .

(والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى) أى والذين لا يؤمنون بالله

ورسوله و بما جاءهم به من عنده فى آذانهم ثقل عن استماع هذا القرآن فلا يستمعون له بل يعرضون عنه ، وهو عليهم عمى فلا يبصرون حججه ومواعظه .

ونحو الآية قوله فى وصفه « وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا » .

ثم مثل حالهم باعتبار عدم فهمهم له بحال من ينادى من مكان بعيد لايسمع من يناديه فقال .

(أولئك ينادون من مكان بعيد) قال الفراء تقول العرب للرجل الذى لا يفهم كلامك: أنت تنادى من مكان بعيد ، ولثاقب الرأى: إنك لتأخذ الأمور من مكان قريب ، شبهت حال هؤلاء المكذبين فى عدم فهمهم وانتفاعهم بما دعوا إليه ، بحال من ينادى من مسافة نائية لايسمع الصوت ولا يفهم تفاصيله ولا معانيه .

ثم بين أن هؤلاء المكذبين ليسوا بدعا بين الأمم فى تكذيبهم بالقرآن ، فقد اختلف من قبلهم فى التوراة فقال :

(ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) أى ولقد أرسلنا موسى وآتيناه التوراة فاختلفوا فيها ، فمن مصدق بها ومن مكذب ، وهكذا شأن قومك معك ، فمن مصدق بكتابك ومن مكذب به ، فلا تأس على ما فعلوا معك واسلك سبيل أولى العزم من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين فقد اصطبروا وأوذوا وكان النصر حليفهم والتوفيق أليفهم وكتب الله لهم الفلج والفوز على أعدائهم المشركين وأهلك الله القوم الظالمين .

ثم أخبر سبحانه أنه أخر عذابهم إلى حين ولم يعاجلهم بالعقاب على ما اجترحوا من تكذيب الرسول وجحدهم بكتابه فقال :

(ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم) أى ولولا ما سبق من قضاء الله وحكمه فيهم من تأخير عذابهم إلى يوم القيامة بنحو قوله : « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » وقوله : « وَلَـكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » لعجل الفصل بينهم فيما اختلفوا فيه بإهلاك المكذبين كما فعل بمكذبى الأمم السالفة .

ثم بين ما يقتضى إهلاكهم فقال :

(وإنهم لفى شك منه مريب) أى وإن قومك لفى شك من أمر القرآن موجب لقلقهم واضطرابهم ، فما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم حين قالوا ما قالوا ، بل كانوا شاكين غير محققين لشىء مما كانوا فيه من عنادك ومقاومة دعوتك .

ثم بين أن الجزاء من جنس العمل وأنه لايظلم ربك أحداً فقال :

(من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) أى من عمل بطاعة الله فى هذه الحياة فأتمر بأمره وانتهى عما نهى عنه فلنفسه عمل ، لأنه يجازى عليه الجزاء الذى هو له أهل ، فينجو من النار ويدخل جنة النعيم .

ومن عصى الله فعلى نفسه جنى ، لأنه أكسبها سخط الله وأليم عقابه ، وقد قالوا فى أمثالهم (إنك لاتجنى من الشوك العنب) وما ربك أيها الرسول بحامل عقوبة ذنب على غير مكتسبه ، بل لايعاقب أحداً إلا على جرم اكتسبه فى الدنيا .

ونحو الآية قوله : « أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى » .

اللهم وفقنا لعمل الصالحات ، وأبعدنا عن ارتكاب الآثام والموبقات ، وألهمنا التوفيق لما يرضيك ، والبعد عما يسخطك .

وقد كان الفراغ من تفسير هذا الجزء من الكتاب الكريم قبيل فجر الليلة السادسة عشرة من ذى الحجة سنة أربع وستين وثلثمائة بعد الألف من هجرة النبى الكريم بمدينة حلوان من أرباض القاهرة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلّ ربنا على محمد وآله .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء